الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

تأليف

شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم
ابن تيمية
٦٦١ - ٧٢٨ هـ

تحقيق
أنور الباز

دار الوفاء

فصل
فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ـ الذى أنزل الله به كتبه وأرسل به رسله ـ من الدِّين .

فإن رسالة الله: إما إخبار، وإما إنشاء.

فالإخبار عن نفسه ، وعن خَلْقه : مثل التوحيد ، والقصص الذى يندرج فيه الوعد والوعيد [١] .

والإنشاء : الأمر والنهى والإباحة.

وهذا كما ذكر فى أن : « ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص]، تعدل ثلث القرآن »[٢] ؛ لتضمنها ثلث: التوحيد، إذ هو[٣] قصص، وتوحيد، وأمر.

وقوله ـ سبحانه ـ فى صفة نبينا ﷺ : ﴿ يأْمُرُهُم بالْمَعْرُوف وينْهَاهُمْ عنِ الْمُنكَرِ ويُحلُّ لهُمُ الطَّيِّبَات ويُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخبائث ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، هو بيان لكمال رسالته، فإنه ﷺ هو الذى أمر الله على لسانه بكل معروف، ونهى عن كل منكر، وأحل كل طيب وحرم كل خبيث؛ ولهذا روى عنه أنه قال: « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[٤] .

وقال فى الحديث المتفق عليه : « مثلى ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً ،

---

(١) فى مدلول « الوَعْد والوَعيد » يقول ابن الأثير ـ رحمه الله : « فالوَعْد يُستعمل فى الخير والشَّرِّ . يقال : وعدتُه خيرًا ووعدتُه شرًا ، فإذا أسقطوا الخير والشرّ قالوا فى الخير : الوَعْد والعِدَة ، وفى الشرّ : الإيعاد والوعيد » . (النهاية فى غريب الحديث ٥/ ٢٠٦ مادة « وعد ») .

(٢) البخارى فى فضائل القرآن (٥٠١٣) ، ومسلم فى صلاة المسافرين (٨١٢/ ٢٦٢) .

(٣) أى : القرآن .

(٤) البيهقى فى السنن الكبرى فى الشهادات (١٠/ ١٩٢) ، وبلفظ « . . . صالح الأخلاق » عند الحاكم فى المستدرك (٢/ ٦١٣) ، وقال : « صحيح على شرط مسلم » ، ووافقه الذهبى ، والبخارى فى الأدب المفرد (٢٧٣) ، وصححه الألبانى فى الصحيحة (٤٥) .

فأتمها وأكملها إلا موضع لَبِنة، فكان الناس يُطيفون بها ويَعجبون من حسنها، ويقولون: لولا موضع اللبنة! فأنا تلك اللبنة » (١) .

فبه كَمُل دين الله ، المتضمن للأمر بكل معروف والنهى عن كل منكر، وإحلال كل طيب وتحريم كل خبيث.

وأما مَنْ قبله من الرسل، فقد كان يحرم على أممهم بعض الطيبات، كما قال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠] (٢).

وربما لم يحرم عليهم جميع الخبائث، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾ [آل عمران: ٩٣] (٣).

وتحريم الخبائث يندرج فى معنى النهى عن المنكر ، كما أن إحلال الطيبات يندرج فى الأمر بالمعروف؛ لأن تحريم الطيبات مما نهى الله عنه .

وكذلك الأمر بجميع المعروف والنهى عن كل منكر مما لم يتم إلا للرسول، الذى تمم الله به مكارم الأخلاق المندرجة فى المعروف، وقد قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، فقد أكمل الله لنا الدين، وأتم علينا النعمة، ورضى لنا الإسلام دينًا.

وكذلك وصف الأمة بما وصف به نبيها حيث قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران : ١١٠] . وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾

[التوبة : ٧١]

---

(١) البخارى فى المناقب (٣٥٣٥) ، ومسلم فى الفضائل (٢٢٨٦/ ٢٠) كلاهما عن أبى هريرة .

(٢) المقصود بـ ﴿الَّذِينَ هَادُوا﴾ : هم اليهود ، والطيبات التى حُرِّمت عليهم هى ـ كما ذكر الإمام الشوكانى فى تفسيره للآية، قال: « هى ما نَصَّه الله سبحانه: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦] ».

(٣) إسرائيل هو : يعقوب ﷺ . وعن ابن عباس أن اليهود قالوا للنبى ﷺ : فأخبرنا ما حرَّم إسرائيل على نفسه ؟ قال : « كان يسكن البدو فاشتكى عرق النساء ، فلم يجد شيئًا يلائمه إلا تحريم الإبل وألبانها ، فلذلك حرَّمها » قالوا : صدقت . (أحمد فى مسنده (١/ ٢٧٤) وقال الشيخ شاكر (٢٤٨٣) : « إسناده صحيح » ، والترمذى فى تفسير القرآن (٣١١٧) وقال : « حسن غريب » ، وصححه الألبانى .

ولهذا قال أبو هريرة : كنتم خير الناس للناس ، تأتون بهم فى الأقياد والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة.

فبين سبحانه أن هذه الأمة خير الأمم للناس، فهم أنفعهم لهم، وأعظمهم إحسانًا إليهم؛ لأنهم كَمَّلوا أمر الناس بالمعروف ونهيهم عن المنكر من جهة الصفة والقَدْر، حيث أمروا بكل معروف، ونهوا عن كل منكر لكل أحد، وأقاموا ذلك بالجهاد فى سبيل الله بأنفسهم وأموالهم، وهذا كمال النفع للخَلْق.

وسائر الأمم لم يأمروا كل أحد بكل معروف، ولا نهوا كل أحد عن كل منكر، ولا جاهدوا على ذلك، بل منهم من لم يجاهد، والذين جاهدوا ـ كبنى إسرائيل ـ فعامة جهادهم كان لدفع عدوهم عن أرضهم، كما يُقاتَل الصائلُ [١] الظالمُ ، لا لدعوة المجَاهَدين وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، كما قال موسى لقومه : ﴿ يا قَوْمِ ادخُلوا الأرضَ المُقدَّسةَ التي كتبَ اللهُ لكُمْ ولا ترتدُّوا على أدبارِكُمْ فتنقلبُوا خاسرين . قالُوا يا مُوسى إنَّ فيها قوْمًا جبَّارينَ وإنَّا لن نَدْخُلَها حتَّى يخْرُجُوا منْها فإن يخْرُجوا منْها فإنَّا داخلُون﴾ إلى قوله : ﴿ قالُوا يا مُوسى إنَّا لن نَدْخُلَها أبدًا مَّا داموا فيها فاذْهبْ أنت وربُّكَ فقاتلا إنَّا هاهُنا قاعدُونَ ﴾ [المائدة: ٢١ ـ ٢٤].

وقال تعالى: ﴿ألَمْ تر إلى الملأ من بني إسرائيلَ منْ بعْد مُوسى إذْ قالُوا لنبيٍّ لَهُمُ ابْعثْ لنا ملكًا نُقاتلْ في سبيلِ اللَّه قالَ هلْ عسيْتُمْ إن كُتبَ عليْكُمُ القتالُ ألاَّ تُقاتلُوا قالُوا ومَا لنا ألاَّ نُقاتلَ في سبيلِ اللَّه وقدْ أُخْرجْنا من ديارنا وأبْنائنا﴾ [البقرة : ٢٤٦]، فعللوا القتال بأنهم أخرجوا من ديارهم وأبنائهم، ومع هذا، فكانوا ناكلين [٢] عما أمروا به من ذلك؛ ولهذا لم تَحِلَّ لهم الغنائم، ولم يكونوا يطؤون بملك اليمين.

---

(١) الصائل : هو الذى يسطو على الخلْق ويسلبهم حقهم . قال فى القاموس : صَال على قِرْنه صَوْلاً وصِيالاً : سَطَا واستطال . (مادة : صال) .

(٢) أى : ممتنعين ، يقال : نَكَل عن الأمر : إذا امتنع ، ومنه النُّكُول فى اليمين وهو الامتناع منها ، وترك الإقدام عليها . (النهاية فى غريب الحديث ، مادة « نكل ») .

ومعلوم أن أعظم الأمم المؤمنين قبلنا بنو إسرائيل ، كما جاء فى الحديث المتفق على صحته فى الصحيحين عن ابن عباس [١] ﷺ قال : خرج علينا النبى ﷺ يومًا فقال : « عُرضت علىَّ الأمم؛ فجعل يمر النبى ومعه الرجل، والنبى معه الرجلان، والنبى معه الرَّهْط[٢]، والنبى ليس معه أحد، ورأيت سوادًا [٣] كثيرًا سَدَّ الأفق [٤] ، فرجوت أن يكون أمتى، فقيل: هذا موسى وقومه. ثم قيل لى: انظر فرأيت سوادًا كثيرًا سد الأفق، فقيل لى: انظر هكذا وهكذا، فرأيت سوادًا كثيرًا سد الأفق، فقيل: هؤلاء أمتك، ومع هؤلاء سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب » .

فتفرق الناس ولم يبين لهم، فتذاكر أصحاب النبى ﷺ فقالوا: أما نحن فولدنا فى الشرك ولكنا آمنا بالله ورسوله، ولكن هؤلاء أبناؤنا .

فبلغ النبى ﷺ فقال: « هم الذين لا يتطيرون [٥] ولا يكتوون، ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون » .

فقام عُكَّاشة بن مِحْصَن فقال: أمنهم أنا يا رسول الله؟ قال: «نعم». فقام

---

(١) هو عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشى الهاشمى أبو العباس ، ابن عم رسول الله ﷺ ، أمه أم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية، كان يقال له : الحبر والبحر لكثرة علمه ، روى عن النبى ﷺ وعن أبيه وأمه أم الفضل وأخيه الفضل وخالته ميمونة وأبى بكر وعثمان وعلى وعبد الرحمن ابن عوف ومعاذ بن جبل وغيرهم وروى عنه ابناه على وابن ابنه محمد بن على وأخوه كثير بن العباس ومن الصحابة عبد الله بن عمر والمسور بن مخرمة وأبو الطفيل وغيرهم من الصحابة ، وعكرمة وعطاء وطاوس وكريب وسعيد بن جبير وغيرهم مات سنة ثمان وستين وقيل : تسع وستين ، وقيل غير ذلك ، فالله أعلم.
انظر : الإصابة فى تمييز الصحابة (٤٧٨٤) ، وتهذيب التهذيب (٥/ ٢٤٢) (٤٧٤) .

(٢) الرَّهْط : هم الجماعة من القوم ما دون العشرة . (القاموس المحيط) .

(٣) السَّواد : ضد البياض، وهو الشخص الذى يُرى من بعيد. ووصفه بالكثير إشارة إلى أن المراد بلفظ الجنسِ، لا الواحد .

(٤) الأفُق : الناحية : والمراد به هنا : ناحية السماء .

(٥) قوله : « ولا يَتَطَيَّرون » : أى لا يتشاءمون بالطيور ونحوها كما كانوا يفعلون فى الجاهلية . حيث إنهم كانوا يطلقون الطير فإذا ما اتجه ناحية اليمين تفاءلوا ومشوا فى حاجاتهم ، أما إذا اتجه ناحية الشمال تشاءموا وقعدوا عن حاجاتهم .

آخر فقال: أمنهم أنا ؟ فقال: « سبقك بها عُكَّاشة »[١] .

إجماع الأمة على أهمية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

ولهذا كان إجماع هذه الأمة حجة؛ لأن الله ـ تعالى ـ أخبر أنهم يأمرون بكل معروف وينهون عن كل منكر . فلو اتفقوا على إباحة محرم أو إسقاط واجب ، أو تحريم حلال أو إخبار عن الله ـ تعالى ـ أو خلقه بباطل ، لكانوا متصفين بالأمر بمنكر والنهى عن معروف .

والأمر بالمنكر والنهى عن المعروف ليس من الكلم الطيب والعمل الصالح، بل الآية[٢] تقتضى أن ما لم تأمر به الأمة فليس من المعروف، وما لم تنه عنه فليس من المنكر .

---

(١) البخارى فى الرقاق (٦٥٤١) ، ومسلم فى الإيمان (٢٢٠/ ٣٧٤) .

فائدة مُهِمَّة :

قال القاضى عياض : « قال الإمام ـ هو المازرى صاحب المُعْلِم بفوائد مسلم :

احتج بعض الناس بهذا الحديث على أن التداوى مكروه . وجُلُّ مذاهب العلماء على خلاف ذلك ، واحتجوا بما وقع فى أحاديث كثيرة من ذكره ﷺ لمنافع الأدوية والأطعمة كالحبة السوداء والقُسْط والصبر وغير ذلك ، وبأنه ﷺ تداوى ، وبإخبار عائشة رضي الله عنها بكثرة تداويه ، وبما عُلم من الاستشفاء برُقاه ، وبالحديث الذى فيه أن بعض أصحابه أخذوا على الرقية أجرًا .

فإذا ثبت هذا صحَّ أن يحمل ما فى الحديث على قوم يعتقدون أن الأدوية نافعة بطباعها كما يقول بعض الطبائعيين ، لا أنهم يفوضون الأمر إلى الله تعالى .

قال القاضى : لهذا التأويل ذهب غير واحد ممن تكلم على الحديث ، ولا يستقيم على مساق الحديث ؛ لأن النبى ﷺ لم يذم هنا من قال بالكى والرُّقى ولا كفرهم ، ولا ذكر سواهما ، فيستقيم أن يتأول بذلك ما ذكروه ، وإنما أخبر أن هؤلاء لهم مَزِيَّة وفضيلة بدخولهم الجنة بغير حساب . . فأخبر أن لهؤلاء مزيد خصوص على سائر المؤمنين وصفات تميزوا بها .

ولو كان على ما تأوله قبل لما اختص هؤلاء بهذه المزية ، لأن تلك هى عقيدة المؤمن ، ومن اعتقد خلاف ذلك كفر . وقد تكلم العلماء وأصحاب المعانى على هذا ، فذهب أبو سليمان الخطابى وغيره أن وجه هذا : أن يكون تركها على جهة التوكل على الله والرضا بما يقضيه من قضاء ، وينزله من بلاء ، قال : وهذه من أرفع درجات المتحققين بالإيمان . وإلى هذا ذهب جماعة من السلف . قال القاضى : وهذا هو ظاهر الحديث، ألا ترى قوله: وعلى ربهم يتوكلون ». (إكمال المعلم ١/ ٦٠١، ٦٠٢ طبعة الوفاء بالمنصورة).

(٢) وهى قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ... ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب على الكفاية :

وإذا كانت آمرة بكل معروف ناهية عن كل منكر، فكيف يجوز أن تأمر كلها بمنكر أو تنهى كلها عن معروف؟ والله ـ تعالى ـ كما أخبر بأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، فقد أوجب ذلك على الكفاية منها بقوله : ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾

[آل عمران : ١٠٤]

وإذا أخبر الله بوقوع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر منها، لم يكن من شرط ذلك أن يصل أمر الآمر ونهى الناهى منها إلى كل مكلف فى العالم، إذ ليس هذا من شرط تبليغ الرسالة ، فكيف يشترط فيما هو من توابعها ؟

بل الشرط أن يتمكن المكلفون من وصول ذلك إليهم. ثم إذا فرطوا فلم يسعوا فى وصوله إليهم مع قيام فاعله بما يجب عليه، كان التفريط منهم لا منه.

وكذلك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يجب على كل أحد بعينه، بل هو على الكفاية، كما دل عليه القرآن .

ولما كان الجهاد من تمام ذلك، كان الجهاد ـ أيضًا ـ كذلك، فإذا لم يقم به من يقوم بواجبه، أثم كل قادر بحسب قدرته، إذ هو واجب على كل إنسان بحسب قدرته، كما قال النبى ﷺ : « من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان »(١) .

وإذا كان كذلك؛ فمعلوم أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقامه بالجهاد هو من أعظم المعروف الذى أمرنا به ، ولهذا قيل: ليكن أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر غير منكر.

---

(١) مسلم فى الإيمان (٤٩/ ٧٨) عن أبى سعيد.

وإذا كان هو من أعظم الواجبات والمستحبات، فالواجبات والمستحبات لابد أن تكون المصلحة فيها راجحة على المفسدة؛ إذ بهذا بعثت الرسل ونزلت الكتب، والله لا يحب الفساد، بل كل ما أمر الله به فهو صلاح.

وقد أثنى الله على الصلاح والمصلحين والذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذم المفسدين فى غير موضع، فحيث كانت مفسدة الأمر والنهى أعظم من مصلحته لم تكن مما أمر الله به، وإن كان قد تُرك واجب وفُعل محرم؛ إذ المؤمن عليه أن يتقى الله فى عباده وليس عليه هداهم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، والاهتداء إنما يتم بأداء الواجب، فإذا قام المسلم بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، كما قام بغيره من الواجبات، لم يضره ضلال الضُّلال.

مراتب تغيير المنكر:

وذلك يكون: تارة بالقلب.

وتارة باللسان.

وتارة باليد.

فأما القلب: فيجب بكل حال؛ إذ لا ضرر فى فعله، ومن لم يفعله فليس هو بمؤمن، كما قال النبى ﷺ: «وذلك أدنى»، أو: «أضعف الإيمان»، وقال: «ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»[١].

وقيل لابن مسعود: مَنْ مَيِّتُ الأحياء؟ فقال: الذى لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا. وهذا هو المفتون الموصوف بأن قلبه كالكوز مُجخِّيًا فى حديث حذيفة بن اليمان[٢].

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم فى الإيمان (٥٠/ ٨٠) عن عبد الله بن مسعود.

(٢) والحديث أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان، باب أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا (١٤٤/ ٢٣١) قال: =

وهنا يغلط فريقان من الناس:

فريق: يترك ما يجب من الأمر والنهى تأويلا لهذه الآية، كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه فى خطبته: إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ وإنكم تضعونها فى غير موضعها، وإنى سمعت النبى ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه»[1].

والفريق الثانى: من يريد أن يأمر وينهى إما بلسانه وإما بيده مطلقًا، من غير فقه وحلم وصبر ونظر فيما يصلح من ذلك وما لا يصلح، وما يقدر عليه وما لا يقدر، كما فى حديث أبى ثعلبة الخُشَنِىّ[2]: سألت عنها رسول الله ﷺ قال: « بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحًّا مطاعًا، وهوًى متبعًا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذى رأى برأيه، ورأيت أمرًا لا يُدَان لك به، فعليك بنفسك، ودع عنك أمر العوام، فإن من ورائكم أيام الصبر،

= وحدثنا محمد بن عبد الله بن نُمَيْر، حدثنا أبو خالد ـ يعنى سليمان بن حَيَّان ـ عن سعد بن طارق، عن ربْعِىّ، عن حذيفة قال: كُنَّا عند عمر، فقال: أيُّكُم سمع رسول الله ﷺ يذكر الفتَن؟ فقال قوم: نحن سمعناه. فقال: لعلكم تَعْنون فتنة الرجل فى أهله وجاره؟ قالوا: أجَلْ. قال: تلك تُكفِّرها الصلاة والصيام والصدقة.

ولكن أيُّكم سمع النبى ﷺ يذكر الفتن التى تموج مَوْجَ البحر؟ قال حذيفة: فأسكتَ القومُ. فقلت: أنا. قال: أنت! لله أبوك.

قال حذيفة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عُودًا عودا، فأىّ قلب أُشْرِبها نُكتَ فيه نكتة سوداء، وأىّ قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيضَ مثلِ الصَّفَا، فلا تضره فتنة ما دامت السمواتُ والأرض. والآخر أسود مُرْبادًّا كالكُوز مُجَخِّيًا لا يعرف معروفًا ولا يُنكر منكرًا، إلا ما أُشْرِب من هواه».

قال أبو خالد: فقلت لسعد: يا أبا مالك، ما أسود مُرْبادا؟ قال: شدة البياض فى سواد. قال: قلتُ: فما الكوز مُجَخِّيًا؟ قال: منكوسًا.

(١) أبو داود فى الملاحم (٤٣٣٨)، والترمذى فى الفتن (٢١٦٨) وقال: «وهذا حديث صحيح». وابن ماجه فى الفتن (٥٠٠٤) وأحمد (١/٥). وقال الشيخ أحمد شاكر (١٦): «إسناده صحيح»، وصححه الألبانى.

(٢) أبو ثعلبة الخشنى اختلف فى اسمه واسم أبيه اختلافًا كثيرًا، روى عن النبى ﷺ وعن معاذ بن جبل وأبى عبيدة بن الجراح، وروى عنه أبو إدريس الخولانى، وسعيد بن المسيب وعطاء بن يزيد الليثى، وأبو أسماء الرحبى وغيرهم، مات سنة خمس وسبعين.

انظر: تهذيب التهذيب (١٢/٥٢) (١٩٨).

الصبر فيهن على مثل قبض على الجمر ، للعامل فيهن كأجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله »[١] .

فيأتى بالأمر والنهى معتقدًا أنه مطيع فى ذلك لله ورسوله وهو معتد فى حدوده، كما انتصب كثير من أهل البدع والأهواء ، كالخوارج[٢] والمعتزلة[٣]

(١) أبو داود فى الملاحم (٤٣٤١) ، والترمذى فى تفسير القرآن (٣٠٥٨) وقال: «حسن غريب» ، وابن ماجه فى الفتن (٤٠١٤) واللفظ له قال الألبانى : « ضعيف لكن فقرة أيام الصبر ثابتة » .

(٢) الخوارج : من أوائل الفرق التى ظهرت فى تاريخ الإسلام ، ويعرفهم أصحاب التصنيف فى الملل بأنهم : كل من خرج على الإمام الحق الذى اتفقت عليه الجماعة يسمى خارجيًا ، سواء كان الخروج فى أيام الصحابة على الأئمة الراشدين أو غيرهم من التابعين لهم بإحسان .

وكان أول خروج عُرف به الخوارج هو خروجهم على الإمام على رضي الله عنه .

ولم تتجاوز أصولهم الأولى مسائل معدودة مثل تكفير مرتكب الكبيرة ، وبسبب وضعهم الدليل فى غير ما يدل عليه ، فقد رتبوا على حكم مرتكب الكبيرة استحلال قتل المسلمين .

ومن عقائدهم الأساسية : وجوب الخروج على الأئمة المسلمين لارتكاب الفسق أو الظلم ، وإنكار الشفاعة، وتكفير بعض الصحابة كأهل التحكيم بين علىّ ومعاوية « عمرو بن العاص وأبى موسى الأشعرى » وكل من رضى بالتحكيم ، وتكفير أصحاب الجمل بمن فيهم عائشة أم المؤمنين ، ولم يكن لهم كلام فى مسائل القدَر والصفات والسمعيات إلا بعد اختلاطهم بأصحاب الفرق الأخرى وتأثرهم بهم ، فمثلاً قالوا بكلام الجهمية بخلق القرآن ، وبقول المعتزلة فى نفى الصفات .

وفى العصر الحاضر لم يعد لفرق الخوارج وجود سوى فرقة « **الإباضية** » وتنتشر فى سلطنة عُمَان وجنوب ليبيا . انظر : الموسوعة الميسرة (٢/١٠٥٣ ، ١٠٥٤) .

(٣) المعتزلة : فرقة من الفرق الإسلامية ، ظهرت فى أواخر العصر الأموى ، وازدهرت فى العصر العباسى . وقد سموا بالمعتزلة لأكثر من سبب ، من ذلك : « أنهم قالوا بوجوب اعتزال مرتكب الكبيرة ومقاطعته ، وقيل ـ وهو الأشهر : أنهم سموا بذلك لاعتزال واصل بن عطاء ـ وكان تلميذًا للحسن البصرى ـ حلقة الحسن البصرى ، وشكل حلقة خاصة به ، لقول واصل فى حق مرتكب الكبيرة ـ بالمنزلة بين المنزلتين ـ أى : لا نحكم عليه بكفر ولا إيمان فى الدنيا وفى الآخرة فهو لا يدخل الجنة ، فقال الحسن : « اعتزلنا واصل » .

ويقوم مذهبهم على خمسة أصول :

١ ـ التوحيد : وخلاصته : أن الله عز وجل منزه عن الشبيه والمماثل ، ولا ينازعه أحد فى سلطانه ، ولا يجرى عليه شىء مما يجرى على الناس . وهذا حق ، ولكنهم بنوا عليه نتائج باطلة ، منها : أن الصفات ليست شيئًا غير الذات وإلا تعدد القدماء !! وأن القرآن مخلوق لله سبحانه وتعالى لنفيهم عنه سبحانه صفة الكلام ، ولذا يُعدُّون من نفاة الصفات .

٢ ـ العدل : ومعناه أن الله عز وجل لا يخلق أفعال العباد ، بل إن العباد يفعلون ما أمروا به ، وينتهون عما نهوا عنه بالقدرة التى جعلها الله لهم وركبها فيهم ، وأنه ولى كل حسنة أمر بها ، برىء من كل سيئة نهى عنها ، لم يكلفهم ما لا يطيقون ، ولا أراد منهم ما لا يقدرون عليه .

٣ ـ الوعد والوعيد : أى أن الله عز وجل يجازى المحسن إحسانا ، ويجازى المسىء سوءا ، ولا يغفر لمرتكب الكبيرة إلا أن يتوب . =

والرافضة[١] ، وغيرهم ممن غلط فيما أتاه من الأمر والنهى والجهاد على ذلك، وكان فساده أعظم من صلاحه ؛ ولهذا أمر النبى ﷺ بالصبر على جور الأئمة، ونهى عن قتالهم ما أقاموا الصلاة [٢] ، وقال : « أدوا إليهم حقوقهم، وسلوا الله حقوقكم »[٣]. وقد بسطنا القول فى ذلك فى غير هذا الموضع.

حكم قتال أئمة الجور :

ولهذا كان من أصول أهل السنة والجماعة لزوم الجماعة وترك قتال الأئمة، وترك القتال فى الفتنة. وأما أهل الأهواء ـ كالمعتزلة ـ فيرون القتال للأئمة من أصول دينهم، ويجعل المعتزلة أصول دينهم خمسة: « التوحيد » الذى هو سلب

= ٤ ـ المنزلة بين المنزلتين : بمعنى أن مرتكب الكبيرة فى منزلة بين الإيمان والكفر ، فليس بمؤمن ولا كافر ، وهو فى الآخرة مخلد فى النار .

٥ ـ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : أى وجوب ذلك على المؤمنين نشرًا لدعوة الإسلام وهداية الضالين، ومن حقيقة هذا الأصل : وجوب الخروج على الحاكم إذا خالف وانحرف عن الحق .

هذا ، ومن مبادئهم اعتمادهم على العقل كليًا فى الاستدلال للعقائد ، وقد ترتب على ذلك وقوعهم فى أخطاء شنيعة ، كما تبين من أصولهم الخمسة .

انظر : الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب . . . (١/ ٦٤ ـ ٧٥).

(١) الرافضة : وهى فرقة من الشيعة ، تعتقد بأحقية أهل البيت فى الإمامة على باقى الصحابة ، بمن فيهم الشيخان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، وعلى أن هذه الإمامة ركن من أركان الدين بنص النبى ﷺ ، وأن الأئمة معصومون .

وإنما سُمُّوا رافضة : لرفضهم إمامة أبى بكر وعمر وعثمان وأكثر الصحابة . وقد أطلق عليهم هذا الاسم بعد رفضهم إمامة زيد بن على ، وتفرقهم عنه ، لعدم موافقته على رفضهم أبى بكر وعمر ، ومن أشهر فرقهم الاثنا عشرية .

انظر : الموسوعة الميسرة (٢/ ١٠٥٩) .

(٢) قلت : يُخطئ كثير من المسلمين فى بيان من هم الأئمة الذين نصبر على جورهم ، ولا نخرج عليهم . والإمام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وغيره من أئمة الإسلام إنما يقصدون بالأئمة ـ الذين وردت الأحاديث فيهم ـ أولئك الذين يحكمون الناس بالكتاب والسنة ويقيمون شرع الله فى كل شؤون حياتهم ثم بعد ذلك يقع منهم جور ، ليسوا أولئك الذين يُقدِّمون قانون البشر على شرع الله ، ويعطلون حدود الله ، ويتعاملون بالربا ، ويبيحون الخمر ، بل ويحاربون من ينادون بتطبيق شرع الله ، فمثل هؤلاء يجب مناصحتهم ، ومطالبتهم بتحكيم شرع الله ، وأن يسوسوا الأمة بالكتاب والسنة ، ثم الأخذ بكل الوسائل المشروعة التى تكفل لنا اختيار من نأمنه على تنفيذ شرع الله فى كل شؤون حياتنا .

(٣) البخارى فى المناقب (٣٦٠٣) ، ومسلم فى الإمارة (١٨٤٣/ ٤٥)، والترمذى فى الفتن (٢١٩٠)، وقال: «حسن صحيح» ، وأحمد (١/ ٣٨٤) .

الصفات، و«العدل» الذى هو التكذيب بالقدر، و«المنزلة بين المنزلتين» و«إنفاذ الوعيد» و«الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» الذى منه قتال الأئمة. وقد تكلمت على قتال الأئمة فى غير هذا الموضع .

القاعدة العامة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

وجماع ذلك داخل فى « القاعدة العامة »: فيما إذا تعارضت المصالح والمفاسد والحسنات والسيئات أو تزاحمت؛ فإنه يجب ترجيح الراجح منها فيما إذا ازدحمت المصالح والمفاسد، وتعارضت المصالح والمفاسد .

فإن الأمر والنهى وإن كان متضمنًا لتحصيل مصلحة ودفع مفسدة فينظر فى المعارض له، فإن كان الذى يفوت من المصالح أو يحصل من المفاسد أكثر، لم يكن مأمورًا به، بل يكون محرمًا إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته .

لكن اعتبار مقادير المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة، فمتى قدر الإنسان على اتباع النصوص لم يعدل عنها، وإلا اجتهد برأيه لمعرفة الأشباه والنظائر، وقل أن تعوز النصوص من يكون خبيرًا بها وبدلالتها على الأحكام.

الحكم فيمن جمع بين معروف ومنكر :

وعلى هذا، إذا كان الشخص أو الطائفة جامعين بين معروف ومنكر، بحيث لا يفرقون بينهما، بل إما أن يفعلوهما جميعًا، أو يتركوهما جميعًا ، لم يجز أن يؤمروا بمعروف ولا أن ينهوا عن منكر ، بل ينظر :

فإن كان المعروف ، أكثر أمر به ، وإن استلزم ما هو دونه من المنكر، ولم ينه عن منكر يستلزم تفويت معروف أعظم منه، بل يكون النهى ـ حينئذ من باب الصد عن سبيل الله والسعى فى زوال طاعته وطاعة رسوله وزوال فعل الحسنات.

وإن كان المنكر أغلب نهى عنه، وإن استلزم فوات ما هو دونه من المعروف، ويكون الأمر بذلك المعروف المستلزم للمنكر الزائد عليه أمرًا بمنكر وسعيًا فى معصية الله ورسوله .

وإن تكافأ المعروف والمنكر المتلازمان، لم يؤمر بهما ولم ينه عنهما.

فتارة يصلح الأمر، وتارة يصلح النهى، وتارة لا يصلح لا أمر ولا نهى حيث كان المعروف والمنكر متلازمين، وذلك فى الأمور المعينة والواقعة.

وأما من جهة النوع :فيؤمر بالمعروف مطلقًا وينهى عن المنكر مطلقًا. وفى الفاعل الواحد والطائفة الواحدة يؤمر بمعروفها وينهى عن منكرها، ويحمد محمودها ويذم مذمومها، بحيث لا يتضمن الأمر بمعروف فوات أكثر منه أو حصول منكر فوقه، ولا يتضمن النهى عن المنكر حصول أنكر منه، أو فوات معروف أرجح منه.

وإذا اشتبه الأمر، استبان المؤمن حتى يتبين له الحق، فلا يقدم على الطاعة إلا بعلم ونية . وإذا تركها كان عاصيًا ، فترك الأمر الواجب معصية ، وفعل ما نهى عنه من الأمر معصية. وهذا باب واسع، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ترك إنكار المنكر لحصول معروف أكثر :

ومن هذا الباب: إقرار النبى ﷺ لعبد الله بن أبىٍّ وأمثاله من أئمة النفاق والفجور لما لهم من أعوان، فإزالة منكره بنوع من عقابه،مستلزمة إزالة معروف أكثر من ذلك بغضب قومه وحميتهم وبنفور الناس إذا سمعوا أن محمدًا يقتل أصحابه؛ ولهذا لما خاطب الناس فى قصة الإفك بما خاطبهم به واعتذر منه، وقال له سعد بن معاذ قوله الذى أحسن فيه : حمى له سعد بن عبادة مع حسن إيمانه وصدقه.

موافقة الآمر أو الناهى لأمر الله ورسوله :

وأصل هذا : أن تكون محبة الإنسان للمعروف ، وبغضه للمنكر، وإرادته لهذا، وكراهته لهذا، موافقة لحب الله وبغضه ، وإرادته وكراهته الشرعيين (١) . وأن يكون فعله للمحبوب ودفعه للمكروه بحسب قوته وقدرته، فإن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وقد قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

فأما حب القلب وبغضه وإرادته وكراهيته، فينبغى أن تكون كاملة جازمة، لا يوجب نقص ذلك إلا نقص الإيمان.

وأما فعل البدن فهو بحسب قدرته، ومتى كانت إرادة القلب وكراهته كاملة تامة وفعل العبد معها بحسب قدرته، فإنه يعطى ثواب الفاعل الكامل، كما قد بيناه فى غير هذا الموضع.

فإن من الناس من يكون حبه وبغضه وإرادته وكراهته بحسب محبة نفسه وبغضها ، لا بحسب محبة الله ورسوله وبغض الله ورسوله، وهذا من نوع الهوى ، فإن اتبعه الإنسان فقد اتبع هواه : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

فإن أصل الهوى محبة النفس، ويتبع ذلك بغضها، ونفس الهوى ـ وهو الحب والبغض الذى فى النفس ـ لا يلام عليه. فإن ذلك قد لا يملك، وإنما يلام

---

(١) الإرادة الشرعية ـ والكره الشرعى ـ عند أهل السنة والجماعة وسلف الأمة عبارة عن الأمر والنهى الشرعى ، بمعنى : أن الله سبحانه وتعالى يحب فعل الطاعة من العبد ويرضى به ، ويريده منه شرعًا ، سواء وجد أو لم يوجد، قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة : ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء : ٢٧] ، ويكره الكفر والفسوق والعصيان ولا يريده، وإنما أوجده بمقتضى إرادته الكونية التى تقع على أساسها كل الأفعال التى تحدث فى الكون خيرها وشرها وما أحب الله منها وما أبغضه ـ ودخول الجنة والنار لا يكونان إلا بناء على هذه الإرادة الشرعية ، فمن وافقها وعمل بشرع الله كان من أهل الجنة ، ومن خالفها فهو من أهل النار . وعليه فإن الإرادة الشرعية والكونية تجتمعان فى إيمان المؤمن وتفترقان فى كفر الكافر ، فهو كافر بمشيئة الله وليس قهرًا من الله ، بل مخالف لما أراد الله منه بإرادته الشرعية .

على اتباعه ، كما قال تعالى : ﴿ يا داوُودُ إنّا جعلناكَ خليفةً في الأرض فاحكُم بينَ الناس بالحقِ ولا تتبعِ الهوى فيُضلَّكَ عن سبيلِ اللهِ ﴾ [ص: ٢٦]. وقال تعالى : ﴿ ومَنْ أضلُّ ممَّن اتبعَ هواهُ بغيرِ هُدًى مِنَ اللهِ ﴾ .

وقال النبى ﷺ : « ثلاث منجيات : خشية الله فى السر والعلانية، والقصد فى الفقر والغنى، وكلمة الحق فى الغضب والرضا. وثلاث مهلكات: شُحٌّ مطاع ، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه » (١).

والحب والبغض يتبعه ذوق عند وجود المحبوب والمبغض، ووجد وإرادة، وغير ذلك. فمن اتبع ذلك بغير أمر الله ورسوله، فهو ممن اتبع هواه بغير هدى من الله، بل قد يصعد به الأمر إلى أن يتخذ إلهه هواه .

خطورة اتباع الهوى فى الديانات :

واتباع الأهواء فى الديانات أعظم من اتباع الأهواء فى الشهوات. فإن الأول حال الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، كما قال تعالى: ﴿فإن لَّمْ يستجيبُوا لكَ فاعلَمْ أنَّما يتَّبعونَ أهواءَهُمْ ومنْ أضلُّ ممَّنِ اتبعَ هواهُ بغيرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿ضرب لكُم مَّثلاً مِّنْ أنفسكُمْ هل لكُم مِّن مَّا ملكَتْ أيمانُكُم مِّن شُركَاءَ فِي ما رزقْناكُم﴾ الآية، إلى أن قال: ﴿بل اتَّبعَ الَّذين ظلَمُوا أهْواءَهُم بغيْرِ علْمٍ ﴾

[الروم: ٢٨، ٢٩]

وقال تعالى: ﴿وقَدْ فصَّلَ لكُم مَّا حرَّمَ عليْكُمْ إلاَّ مَا اضطُررْتُمْ إليْهِ وإنَّ كثيرًا لَّيُضلُّونَ بأهوائهِم بغيْرِ علْمٍ﴾ الآية [الأنعام: ١١٩].

وقال تعالى: ﴿يا أهْلَ الْكتابِ لا تغْلُوا في دينكُمْ غيْرَ الْحقِّ ولا تتَّبعُوا أهْواءَ قوْمٍ قدْ ضلُّوا من قبْلُ وأضلُّوا كثيرًا وضلُّوا عن سواءِ السَّبيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

---

(١) الطبرانى فى الأوسط (٥٤٥٢) ، والبيهقى فى شعب الإيمان (٧٤٥، ٧٢٥٢)، وقال الألبانى فى المشكاة (٥١٢٢) : « حسن بشواهده » .

وقال تعالى: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير﴾

[البقرة: ١٢٠]

وقال تعالى فى الآية الأخرى: ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين ﴾ [البقرة: ١٤٥].

وقال: ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم﴾ [المائدة: ٤٩].

ولهذا كان من خرج عن موجب الكتاب والسنة من العلماء والعباد يجعل من أهل الأهواء، كما كان السلف يسمونهم أهل الأهواء ، وذلك أن كل من لم يتبع العلم فقد اتبع هواه ، والعلم بالدين لا يكون إلا بهدى الله الذى بعث به رسوله؛ ولهذا قال تعالى فى موضع : ﴿وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم﴾ ، وقال فى موضع آخر: ﴿ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾ .

فالواجب على العبد أن ينظر فى نفس حبه وبغضه، ومقدار حبه وبغضه: هل هو موافق لأمر الله ورسوله ؟ وهو هدى الله الذى أنزله على رسوله ، بحيث يكون مأمورًا بذلك الحب والبغض، لا يكون متقدمًا فيه بين يدى الله ورسوله، فإنه قد قال: ﴿لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾ [الحجرات: ١].

ومن أحب أو أبغض قبل أن يأمره الله ورسوله، ففيه نوع من التقدم بين يدى الله ورسوله.

ومجرد الحب والبغض هوى، لكن المحرم اتباع حبه وبغضه بغير هدى من الله؛ ولهذا قال: ﴿ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد﴾ [ص: ٢٦]، فأخبر أن من اتبع هواه، أضله ذلك عن سبيل الله، وهو هداه الذى بعث به رسوله، وهو السبيل إليه.

بيان أهمية إرادة وجه الله بالعمل الصالح :

وتحقيق ذلك أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو من أوجب الأعمال وأفضلها وأحسنها ، وقد قال تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك: ٢]. وهو كما قال الفضيل بن عياض ـ رحمه الله : أخلصه وأصوبه. فإن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا، لم يقبل حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص: أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة.

فالعمل الصالح لابد أن يراد به وجه الله ـ تعالى ـ فإن الله ـ تعالى ـ لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه وحده، كما فى الصحيح عن النبى ﷺ قال: «يقول الله: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، ومن عمل عملا أشرك فيه غيرى، فأنا برىء منه، وهو كله للذى أشرك »[١].

وهذا هو التوحيد الذى هو أصل الإسلام، وهو دين الله الذى بعث به جميع رسله، وله خلق الخلق، وهو حقه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، ولابد مع ذلك أن يكون العمل صالحًا، وهو ما أمر الله به ورسوله، وهو الطاعة، فكل طاعة عمل صالح، وكل عمل صالح طاعة، وهو العمل المشروع المسنون، إذ المشروع المسنون هو المأمور به أمر إيجاب أو استحباب، وهو العمل الصالح، وهو الحسن، وهو البر، وهو الخير، وضده المعصية والعمل الفاسد، والسيئة، والفجور، والظلم والبغى .

ولما كان العمل لابد فيه من شيئين: النية والحركة، كما قال النبى ﷺ : «أصدق الأسماء حارث وهمام »[٢] ، فكل أحد حارث وهمام له عمل ونية، لكن النية المحمودة التى يتقبلها الله ويثيب عليها أن يراد الله بذلك العمل.

---

(١) مسلم فى الزهد (٤٦/٢٩٨٥) ، وابن ماجه فى الزهد (٤٢٠٢) .

(٢) أحمد (٤/ ٣٤٥)، والبخارى فى الأدب المفرد (٨١٤)، وأبو داود فى الأدب (٤٩٠٥)، وصححه الألبانى.

والعمل المحمود الصالح: وهو المأمور به؛ ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول فى دعائه : اللهم اجعل عملى كله صالحًا ، واجعله لوجهك خالصًا ، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا.

تحقق العلم والفقه فى الآمر أو الناهى :

وإذا كان هذا حدُّ كل عمل صالح ، فالآمر بالمعروف والناهى عن المنكر يجب أن يكون هكذا فى حق نفسه ، ولا يكون عمله صالحًا إن لم يكن بعلم وفقه، وكما قال عمر بن عبد العزيز : من عبد الله بغير علم، كان ما يفسد أكثر مما يصلح. وكما فى حديث معاذ بن جبل[1] رضي الله عنه : « العلم إمام العمل والعمل تابعه »[2] ، وهذا ظاهر . فإن القصد والعمل إن لم يكن بعلم ، كان جهلاً وضلالاً واتباعًا للهوى كما تقدم، وهذا هو الفرق بين أهل الجاهلية وأهل الإسلام.

فلابد من العلم بالمعروف والمنكر والتمييز بينهما.

ولابد من العلم بحال المأمور والمنهى. ومن الصلاح أن يأتى بالأمر والنهى بالصراط المستقيم، وهو أقرب الطرق إلى حصول المقصود.

تحقق الرفق فى الآمر أو الناهى :

ولابد فى ذلك من الرفق، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما كان الرفق فى شىء

---

(١) هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس أبو عبد الرحمن الأنصارى الخزرجى الإمام المقدم فى علم الحلال والحرام . كان أبيض وضىء الوجه براق الثنايا أكحل العينين . شهد المشاهد كلها ، وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أحاديث ، روى عنه ابن عباس وابن عمر وابن أبى أوفى الأشعرى وغيرهم . أمره النبى صلى الله عليه وسلم على اليمن ، ومناقبه كثيرة جدًا ، وقدم من اليمن فى خلافة أبى بكر ، وكانت وفاته بالطاعون فى الشام سنة سبع عشرة أو التى بعدها وهو قول الأكثر ، وعاش أربعًا وثلاثين سنة ، وقيل غير ذلك .
انظر : الإصابة (٦/ ١٣٦) (٨٠٤٢) .

(٢) أبو نعيم فى حلية الأولياء (١/ ٢٣٩) ، وقال الألبانى فى ضعيف الترغيب والترهيب (٤٧)، والضعيفة (٥٢٩٣) : « موضوع » .

إلا زانه، ولا كان العنف فى شىء إلا شانه »[١]، وقال : « إن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله، ويعطى عليه ما لا يعطى على العنف »[٢].

تحقق الصبر فى الآمر أو الناهى :

ولابد ـ أيضًا ـ أن يكون حليمًا صبورًا على الأذى، فإنه لابد أن يحصل له أذى. فإن لم يحلم ويصبر، كان ما يفسد أكثر مما يصلح، كما قال لقمان لابنه: ﴿وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور﴾ [لقمان: ١٧].

ولهذا أمر الله الرسل ـ وهم أئمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بالصبر، كقوله لخاتم الرسل، بل ذلك مقرون بتبليغ الرسالة، فإنه أول ما أرسل أنزلت عليه سورة : ﴿يا أيها المدثر﴾، بعد أن أنزلت عليه سورة « اقرأ » التى بها نبئ، فقال: ﴿يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر﴾ [المدثر: ١ ـ ٧].

فافتتح آيات الإرسال إلى الخلق بالأمر بالنذارة، وختمها بالأمر بالصبر، ونفس الإنذار أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، فعلم أنه يجب بعد ذلك الصبر، وقال: ﴿واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا﴾ [الطور : ٤٨]، وقال تعالى : ﴿ واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا﴾ [المزمل: ١٠]، وقال : ﴿ فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾ [الأحقاف : ٣٥] ، وقال : ﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت ﴾ [القلم: ٤٨]، وقال: ﴿واصبر وما صبرك إلا بالله﴾ [النحل: ١٢٧]، وقال: ﴿واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ [هود: ١١٥].

فلابد من هذه الثلاثة : العلم، والرفق، والصبر. العلم قبل الأمر والنهى، والرفق معه، والصبر بعده، وإن كان كل من الثلاثة مستصحبًا فى هذه الأحوال.

---

(١) البخارى فى الأدب المفرد (٤٦٩) ، ومسلم فى البر والصلة (٢٥٩٤/٧٨) .

(٢) أبو داود فى الأدب (٤٨٠٧) ،وابن ماجه فى الأدب (٣٦٨٨) ، وصححه الألبانى .

وهذا كما جاء فى الأثر عن بعض السلف ورووه مرفوعًا ، ذكره القاضى أبو يعلى فى المعتمد : « لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيهًا فيما يأمر به، فقيهًا فيما ينهى عنه .

رفيقًا فيما يأمر به، رفيقًا فيما ينهى عنه .

حليمًا فيما يأمر به، حليمًا فيما ينهى عنه ».

خطورة التقصير فى القيام بالأمر والنهى :

وليعلم أن الأمر بهذه الخصال فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مما يوجب صعوبة على كثير من النفوس، فيظن أنه بذلك يسقط عنه، فيدعه، وذلك مما يضره أكثر مما يضره الأمر بدون هذه الخصال أو أقل، فإن ترك الأمر الواجب معصية .

فالمنتقل من معصية إلى معصية أكبر منها ، كالمستجير من الرمضاء بالنار.

والمنتقل من معصية إلى معصية، كالمنتقل من دين باطل إلى دين باطل، وقد يكون الثانى شرًا من الأول، وقد يكون دونه، وقد يكونان سواء.

فهكذا تجد المقصر فى الأمر والنهى والمعتدى فيه قد يكون ذنب هذا أعظم، وقد يكون ذنب هذا أعظم، وقد يكونان سواء.

تذكير الآمر والناهى بآثار المعاصى والطاعات :

ومن المعلوم ـ بما أرانا الله من آياته فى الآفاق وفى أنفسنا وبما شهد به فى كتابه ـ أن المعاصى سبب المصائب؛ فسيئات المصائب والجزاء من سيئات الأعمال، وأن الطاعة سبب النعمة. فإحسان العمل سبب لإحسان الله .

قال تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾

[الشورى: ٣٠]

وقال تعالى: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾

[النساء: ٧٩]

وقال تعالى: ﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم﴾ [آل عمران: ١٥٥].

وقال: ﴿أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم﴾

[آل عمران: ١٦٥]

وقال: ﴿أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير﴾ [الشورى: ٣٤].

وقال: ﴿وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور﴾ [الشورى: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾

[الأنفال: ٣٣]

وقد أخبر ـ سبحانه ـ بما عاقب به أهل السيئات من الأمم، كقوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وأصحاب مدين، وقوم فرعون فى الدنيا. وأخبر بما يعاقبهم به فى الآخرة؛ ولهذا قال مؤمن آل فرعون: ﴿يا قوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب. مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد. ويا قوم إنى أخاف عليكم يوم التناد. يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد﴾ [غافر: ٣٠ - ٣٣].

وقال تعالى: ﴿كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر﴾ [القلم: ٣٣].

وقال: ﴿سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم﴾ [التوبة: ١٠١].

وقال: ﴿ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون﴾

[السجدة: ٢١]

وقال: ﴿فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين﴾ إلى قوله: ﴿يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون﴾ [الدخان: ١٠ ـ ١٦].

ولهذا يذكر الله فى عامة سور الإنذار ما عاقب به أهل السيئات فى الدنيا وما أعده لهم فى الآخرة ، وقد يذكر فى السورة وعد الآخرة فقط ؛ إذ عذاب الآخرة أعظم، وثوابها أعظم، وهى دار القرار.

وإنما يذكر ما يذكره من الثواب والعقاب فى الدنيا تبعًا، كقوله فى قصة يوسف: ﴿وكذلك مكّنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين . ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ [يوسف: ٥٦، ٥٧].

وقال: ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة﴾ [آل عمران: ١٤٨].

وقال: ﴿ والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون . الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ [النحل:٤١، ٤٢].

وقال عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿ وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

وأما ذكره لعقوبة الدنيا والآخرة ، ففى سورة « النازعات »: ﴿والنازعات غرقا والناشطات نشطا ﴾ ، ثم قال : ﴿ يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة ﴾ ، فذكر القيامة مطلقًا، ثم قال: ﴿هل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ ، إلى قوله: ﴿إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾ .

ثم ذكر المبدأ والمعاد مفصلاً فقال: ﴿ أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها ﴾ ، إلى قوله تعالى: ﴿فإذا جاءت الطامة الكبرى﴾ ، إلى قوله تعالى: ﴿فأما من طغى . وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هي المأوى﴾ . إلى آخر السورة.

وكذلك فى «المزمل» ذكر قوله: ﴿وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا. إن لدينا أنكالا وجحيما . وطعاما ذا غصة وعذابا أليما . يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا . إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا . فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا﴾ [المزمل: ١١ ـ ١٦].

وكذلك فى سورة « الحاقة » ذكر قصص الأمم ، كثمود وعاد وفرعون ثم قال تعالى: ﴿ فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ﴾ [الحاقة : ١٣ ، ١٤] ، إلى تمام ما ذكره من أمر الجنة والنار.

وكذلك فى سورة « ن والقلم »، ذكر قصة أهل البستان الذين منعوا حق أموالهم وما عاقبهم به، ثم قال: ﴿كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾ [القلم: ٣٣]

وكذلك فى سورة « التغابن » قال: ﴿ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم . ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد﴾، ثم قال: ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن﴾ [التغابن: ٥ ـ ٧].

وكذلك فى سورة « ق » ذكر حال المخالفين للرسل ؛ وذكر الوعد والوعيد فى الآخرة.

وكذلك فى سورة « القمر» ذكر هذا وهذا.

وكذلك فى « آل حم » مثل حم غافر، والسجدة، والزخرف، والدخان، وغير ذلك. إلى غير ذلك مما لا يحصى.

فإن التوحيد والوعد والوعيد هو أول ما أنزل، كما فى صحيح البخارى عن يوسف بن ماهك [١] قال:

إنى عند عائشة أم المؤمنين إذ جاءها عراقى فقال : أى الكفن خير ؟

---

(١) هو يوسف بن ماهك بن مهران الفارسى المكى مولى قريش ، روى عن أبيه وأبى مسيكة وأبى هريرة وعائشة وحكيم بن حزام وعبد الله بن عباس وأرسل عن أبى بن كعب ، وروى عنه عطاء بن أبى رباح وهو من أقرانه وأيوب وأبو بسر وحميد الطويل وغيرهم، قال ابن معين والنسائى : ثقة؛ وذكره ابن حبان فى الثقات، مات سنة عشرة ومائة وقيل : سنة أربع عشرة ومائة .
انظر تهذيب التهذيب (١١/ ٣٧٠) (٧٢٢) .

قالت: ويحك ! وما يضرك؟ قال: يا أم المؤمنين، أرينى مصحفك.

قالت: لم ؟

قال : لعلى أؤلف القرآن عليه، فإنه يقرأ غير مؤلف .

قالت : وما يضرك أيه قرأت قبل ، إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل[١] فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب[٢] الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر ، لقالوا : لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل : لا تزنوا ، لقالوا : لا ندع الزنا أبدًا، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإنى لجارية ألعب : ﴿ بل السَّاعةُ موعدُهُمْ والسَّاعةُ أدْهى وأمَرُّ ﴾ [القمر: ٤٦]، وما نزلت سورة « البقرة » و« النساء » إلا وأنا عنده.

قال : فأخرجت له المصحف فأملت عليه آى السور[٣].

من أسباب الفتن فى الأمة :

وإذا كان الكفر والفسوق والعصيان سبب الشر والعدوان، فقد يذنب الرجل أو الطائفة ويسكت آخرون عن الأمر والنهى، فيكون ذلك من ذنوبهم، فيحصل التفرق والاختلاف والشر، وهذا من أعظم الفتن والشرور قديمًا وحديثًا؛ إذ الإنسان ظلوم جهول، والظلم والجهل أنواع، فيكون ظلم الأول وجهله من نوع، وظلم كلٍّ من الثانى والثالث وجهلهما من نوع آخر وآخر.

ومن تدبر الفتن الواقعة رأى سببها ذلك، ورأى أن ما وقع بين أمراء الأمة وعلمائها ومن دخل فى ذلك من ملوكها ومشايخها، ومن تبعهم من العامة من

---

(١) وإنما سميت بعض سور القرآن بـ « المُفَصَّل » لكثرة الفصول بين سوره . وقد اختلف فى تحديدها ، فقيل : من سورة الحجرات إلى آخره ، وقيل : من الصافات إلى آخره ، وقيل غير ذلك .

(٢) ثاب : أى رجع .

(٣) البخارى فى فضائل القرآن (٤٩٩٣).

الفتن هذا أصلها، يدخل فى ذلك أسباب الضلال والغى التى هى الأهواء الدينية والشهوانية وهى :

ـ البدع فى الدين .

ـ والفجور فى الدنيا. وذلك أن أسباب الضلال والغى ـ التى هى البدع فى الدين، والفجور فى الدنيا ـ مشتركة تعم بنى آدم ؛ لما فيهم من الظلم والجهل؛ فيذنب بعض الناس بظلم نفسه وغيره ، بفعل الزنا أو التلوّط أو غيره، أو شرب خمر ، أو ظلم فى المال بخيانة أو سرقة أو غصب، أو نحو ذلك.

ومعلوم أن هذه المعاصى وإن كانت مستقبحة مذمومة فى العقل والدين، فهى مشتهاة ـ أيضًا ـ ومن شأن النفوس أنها لا تحب اختصاص غيرها بها، لكن تريد أن يحصل لها ما حصل له، وهذا هو الغبطة التى هى أدنى نوعى الحسد.

التحذير من الحسد :

فهى تريد الاستعلاء على الغير والاستئثار دونه، أو تحسده وتتمنى زوال النعمة عنه وإن لم يحصل ، ففيها من إرادة العلو والفساد والاستكبار والحسد ما مقتضاه أنها تختص عن غيرها بالشهوات، فكيف إذا رأت الغير قد استأثر عليها بذلك واختص بها دونها ؟ فالمعتدل منهم فى ذلك الذى يحب الاشتراك والتساوى، وأما الآخر فظلوم حسود.

وهذان يقعان فى الأمور المباحة والأمور المحرمة لحق الله، فما كان جنسه مباحًا من أكل وشرب ونكاح ولباس وركوب وأموال إذا وقع فيها الاختصاص، حصل بسببه الظلم، والبخل والحسد. وأصلها الشح، كما فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال: «إياكم والشح ! فإنه أهلك من كان قبلكم: أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا »[1] .

---

(١) البخارى فى الأدب المفرد (٤٧٠) عن أبى هريرة ، وأحمد (٢/ ١٩١)، وأبو داود فى الزكاة (١٦٩٨) عن عبد الله بن عمرو، وصححه الألبانى .

ولهذا قال الله ـ تعالى ـ فى وصف الأنصار الذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبل المهاجرين: ﴿ولا يجدُون فى صُدُورهم حاجةً مِمَّا أُوتُوا﴾ أى: لا يجدون الحسد مما أوتى إخوانهم من المهاجرين، ﴿ويُؤثِرُون علىٰ أنفُسهم ولو كان بهم خصاصةٌ﴾ ثم قال: ﴿ومَن يُوق شُحَّ نفسه فأُولئك هُمُ المُفلحُون﴾ [الحشر: ٩].

ورؤى عبد الرحمن بن عوف (١) يطوف بالبيت ويقول: رب قنى شح نفسى، رب قنى شح نفسى، فقيل له فى ذلك فقال: إذا وقيت شح نفسى، فقد وقيت البخل والظلم والقطيعة، أو كما قال.

فهذا الشح الذى هو شدة حرص النفس يوجب البخل بمنع ما هو عليه، والظلم بأخذ مال الغير. ويوجب قطيعة الرحم، ويوجب الحسد، وهو كراهة ما اختص به الغير، والحسد فيه بخل وظلم، فإنه بخل بما أعطيه غيره، وظلمه بطلب زوال ذلك عنه.

فإذا كان هذا فى جنس الشهوات المباحة، فكيف بالمحرمة كالزنا وشرب الخمر ونحو ذلك؟ وإذا وقع فيها اختصاص، فإنه يصير فيها نوعان:

أحدهما: بغضها لما فى ذلك من الاختصاص والظلم، كما يقع فى الأمور المباحة الجنس.

والثانى: بغضها لما فى ذلك من حق الله.

---

(١) عبد الرحمن بن عوف: هو عبد الرحمن بن عوف القرشى الكلابى، كان اسمه فى الجاهلية عبد عمرو، وقيل: عبد الكعبة، فسماه رسول الله ﷺ عبد الرحمن، ولد بعد الفيل بعشر سنين، وأسلم قبل أن يدخل الرسول ﷺ دار الأرقم، وكان أحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام، وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبى بكر، وآخى الرسول بينه وبين سعد بن الربيع.

شهد بدرًا وأحدًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وبعثه رسول الله ﷺ إلى دومة الجندل، وعممه بيده، وكان أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين جعل عمر بن الخطاب الخلافة فيهم، وجرح يوم أحد إحدى وعشرين جراحة. وكان كثير الإنفاق فى سبيل الله.

توفى سنة إحدى وثلاثين بالمدينة، ومات وهو ابن خمس وسبعين سنة.

انظر: الإصابة (٤/ ٣٤٦) (٥١٨٣).

أنواع الذنوب :

ولهذا كانت الذنوب ثلاثة أقسام:

أحدها :ما فيها ظلم للناس، كالظلم بأخذ الأموال ومنع الحقوق، والحسد، ونحو ذلك.

والثانى : ما فيه ظلم للنفس فقط ، كشرب الخمر والزنا ، إذا لم يتعد ضررهما.

والثالث :ما يجتمع فيه الأمران؛ مثل أن يأخذ المتولى أموال الناس يزنى بها ويشرب بها الخمر، ومثل أن يزنى بمن يرفعه على الناس بذلك السبب ويضرهم، كما يقع ممن يحب بعض النساء والصبيان، وقد قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف: ٣٣].

العدل أساس كل شىء :

وأمور الناس تستقيم فى الدنيا مع العدل الذى فيه الاشتراك فى أنواع الإثم، أكثر مما تستقيم مع الظلم فى الحقوق وإن لم تشترك فى إثم، ولهذا قيل:

إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة.

ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام.

وقد قال النبى ﷺ : « ليس ذنب أسرع عقوبة من البغى وقطيعة الرحم»[١] .

---

(١) الترمذى فى صفة القيامة (٢٥١١) عن أبى بكرة، وقال الترمذى: «حسن صحيح» ، وابن ماجه فى الزهد (٤٢١١) ، وصححه الألبانى .

فالباغى يصرع فى الدنيا وإن كان مغفورًا له مرحومًا فى الآخرة، وذلك أن العدل نظام كل شىء، فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل، قامت وإن لم يكن لصاحبها فى الآخرة من خلاق، ومتى لم تقم بعدل، لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به فى الآخرة .

فالنفس فيها داعى الظلم لغيرها بالعلو عليه والحسد له، والتعدى عليه فى حقه. وداعى الظلم لنفسها بتناول الشهوات القبيحة كالزنا وأكل الخبائث، فهى قد تظلم من لا يظلمها، وتؤثر هذه الشهوات وإن لم تفعلها، فإذا رأت نظراءها قد ظلموا وتناولوا هذه الشهوات، صار داعى هذه الشهوات أو الظلم فيها أعظم بكثير، وقد تصبر، ويهيج ذلك لها من بغض ذلك الغير وحسده وطلب عقابه وزوال الخير عنه ما لم يكن فيها قبل ذلك، ولها حجة عند نفسها من جهة العقل والدين، ويكون ذلك الغير قد ظلم نفسه والمسلمين، وأن أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر واجب، والجهاد على ذلك من الدين.

أنواع الناس تجاه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

والناس هنا ثلاثة أقسام:

لا يقومون إلا فى أهواء نفوسهم، فلا يرضون إلا بما يعطونه، ولا يغضبون إلا لما يحرمونه، فإذا أعطى أحدهم ما يشتهيه من الشهوات الحلال والحرام، زال غضبه وحصل رضاه، وصار الأمر الذى كان عنده منكرًا ـ ينهى عنه ويعاقب عليه ويذم صاحبه ويغضب عليه ـ مرضيا عنده، وصار فاعلا له وشريكا فيه، ومعاونا عليه، ومعاديا لمن نهى عنه وينكر عليه. وهذا غالب فى بنى آدم، يرى الإنسان ويسمع من ذلك ما لا يحصيه.

وسببه : أن الإنسان ظلوم جهول، فلذلك لا يعدل، بل ربما كان ظالما فى الحالين، يرى قوما ينكرون على المتولى ظلمه لرعيته واعتدائه عليهم، فيرضى

أولئك المنكرين ببعض الشيء فينقلبون أعوانًا له، وأحسن أحوالهم أن يسكتوا عن الإنكار عليه.

وكذلك تراهم ينكرون على من يشرب الخمر ويزنى ويسمع الملاهى ، حتى يدخلوا أحدهم معهم فى ذلك ، أو يرضوه ببعض ذلك ، فتراه قد صار عونا لهم. وهؤلاء قد يعودون بإنكارهم إلى أقبح من الحال التى كانوا عليها، وقد يعودون إلى ما هو دون ذلك أو نظيره.

وقوم : يقومون قومة ديانة صحيحة ، يكونون فى ذلك مخلصين لله، مصلحين فيما عملوه، ويستقيم لهم ذلك حتى يصبروا على ما أوذوا. وهؤلاء هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهم من خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويؤمنون بالله.

وقوم : يجتمع فيهم هذا وهذا، وهم غالب المؤمنين، فمن فيه دين وله شهوة تجتمع فى قلوبهم إرادة الطاعة وإرادة المعصية، وربما غلب هذا تارة وهذا تارة.

وهذه القسمة الثلاثية كما قيل : الأنفس ثلاث: أمارة، ومطمئنة، ولوامة.

فالأولون : هم أهل الأنفس الأمارة التى تأمرهم بالسوء .

والأوسطون: هم أهل النفوس المطمئنة التى قيل فيها: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية . فادخلي في عبادي. وادخلي جنتي﴾ [الفجر : ٢٧ ـ ٣٠].

والآخرون : هم أهل النفوس اللوامة التى تفعل الذنب ثم تلوم عليه، وتتلون تارة كذا، وتارة كذا. وتخلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا وهؤلاء يُرجى أن يتوب عليهم إذا اعترفوا بذنوبهم كما قال تعالى : ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم (١٠٢) ﴾ [التوبة].

ولهذا لما كان الناس فى زمن أبى بكر وعمر ـ اللذين أُمِرَ المسلمون بالاقتداء بهما، كما قال ﷺ: «اقتدوا باللذين من بعدى : أبى بكر وعمر»[١] ـ أقرب عهدًا بالرسالة وأعظم إيمانا وصلاحا ، وأئمتهم أقوم بالواجب وأثبت فى الطمأنينة ـ لم تقع فتنة، إذ كانوا فى حكم القسم الوسط.

ولما كان فى آخر خلافة عثمان وخلافة علىٍّ كثر القسم الثالث، فصار فيهم شهوة وشبهة مع الإيمان والدين، وصار ذلك فى بعض الولاة وبعض الرعايا.

ثم كثر ذلك بعد، فنشأت الفتنة التى سببها ما تقدم من عدم تمحيص التقوى والطاعة فى الطرفين، واختلاطهما بنوع من الهوى والمعصية فى الطرفين، وكل منهما متأول أنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وأنه مع الحق والعدل، ومع هذا التأويل نوع من الهوى، ففيه نوع من الظن وما تهوى الأنفس؛ وإن كانت إحدى الطائفتين أولى بالحق من الأخرى.

فلهذا يجب على المؤمن أن يستعين بالله، ويتوكل عليه فى أن يقيم قلبه ولا يزيغه، ويثبته على الهدى والتقوى، ولا يتبع الهوى، كما قال تعالى : ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم ﴾ [الشورى: ١٥] .

وهذا ـ أيضا ـ حال الأمة فيما تفرقت فيه واختلفت فى المقالات والعبادات. وهذه الأمور مما تعظم بها المحنة على المؤمنين، فإنهم يحتاجون إلى شيئين: إلى دفع الفتنة التى ابتلى بها نظراؤهم من فتنة الدين والدنيا عن نفوسهم مع قيام المقتضى لها، فإن معهم نفوسًا وشياطين كما مع غيرهم، فمع وجود ذلك من نظرائهم، يقوى المقتضى عندهم، كما هو الواقع، فيقوى الداعى الذى فى نفس الإنسان وشيطانه ، وما يحصل من الداعى بفعل الغير والنظير.

---

(١) الترمذى فى المناقب (٣٦٦٢) وقال: « هذا حديث حسن »، وابن ماجه فى المقدمة (٩٧)، وأحمد ٥/ ٣٨٢، وصححه الألبانى .

فكم ممن لم يرد خيراً ولا شراً حتى رأى غيره ـ لا سيما إن كان نظيره ـ يفعله ففعله، فإن الناس كأسراب القطا[١]، مجبولون على تشبه بعضهم ببعض.

ولهذا كان المبتدئ بالخير والشر له مثل من تبعه من الأجر والوزر، كما قال النبى ﷺ: « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أجورهم شيئا، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أوزارهم شيئا»[٢]. وذلك لاشتراكهم فى الحقيقة، وإن حكم الشىء حكم نظيره. وشبيه الشىء منجذب إليه.

فإذا كان هذان داعيين قويين: فكيف إذا انضم إليهما داعيان آخران؟

وذلك أن كثيراً من أهل المنكر يحبون من يوافقهم على ما هم فيه، ويبغضون من لا يوافقهم، وهذا ظاهر فى الديانات الفاسدة من موالاة كل قوم لموافقيهم، ومعاداتهم لمخالفيهم.

وكذلك فى أمور الدنيا والشهوات كثيراً ما يختارون ويؤثرون من يشاركهم: إما للمعاونة على ذلك، كما فى المتغلبين من أهل الرياسات وقطاع الطريق ونحوهم.

وإما بالموافقة، كما فى المجتمعين على شرب الخمر، فإنهم يختارون أن يشرب كل من حضر عندهم.

وإما لكراهتهم امتيازه عنهم بالخير: إما حسداً له على ذلك؛ لئلا يعلو عليهم بذلك ويحمد دونهم. وإما لئلا يكون له عليهم حجة.

وإما لخوفهم من معاقبته لهم بنفسه، أو بمن يرفع ذلك إليهم، ولئلا

---

(١) القطا: طائر.

(٢) مسلم فى الزكاة (١٠١٧/٦٩)، وأحمد (٤/٣٥٧، ٣٥٩).

يكونوا تحت منته وخطره ونحو ذلك من الأسباب، قال الله تعالى: ﴿ودَّ كثيرٌ من أهل الكتاب لو يردُّونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحقُّ﴾ [البقرة : ١٠٩]

وقال تعالى فى المنافقين : ﴿ ودُّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواءً ﴾ [النساء : ٨٩]

وقال عثمان بن عفان ﷺ : ودت الزانية لو زنى النساء كلهن.

والمشاركة قد يختارونها فى نفس الفجور ، كالاشتراك فى الشرب والكذب والاعتقاد الفاسد ، وقد يختارونها فى النوع ، كالزانى الذى يود أن غيره يزنى، والسارق الذى يود أن غيره يسرق ـ أيضا ـ لكن فى غير العين التى زنى بها أو سرقها.

وأما الداعى الثانى : فقد يأمرون الشخص بمشاركتهم فيما هم عليه من المنكر، فإن شاركهم وإلا عادوه وآذوه على وجه ينتهى إلى حد الإكراه، أو لا ينتهى إلى حد الإكراه، ثم إن هؤلاء الذين يختارون مشاركة الغير لهم فى قبيح فعلهم أو يأمرونه بذلك ويستعينون به على ما يريدونه متى شاركهم وعاونهم وأطاعهم، انتقصوه واستخفوا به، وجعلوا ذلك حجة عليه فى أمور أخرى. وإن لم يشاركهم ، عادوه وآذوه . وهذه حال غالب الظالمين القادرين.

وهذا الموجود فى المنكر نظيره فى المعروف وأبلغ منه، كما قال تعالى: ﴿والذين آمنوا أشدُّ حبًا لله﴾ [البقرة: ١٦٥] ، فإن داعى الخير أقوى، فإن الإنسان فيه داع يدعوه إلى الإيمان والعلم، والصدق والعدل، وأداء الأمانة .

فإذا وجد من يعمل مثل ذلك صار له داع آخر، لا سيما إذا كان نظيره، لا سيما مع المنافسة، وهذا محمود حسن، فإن وجد من يحب موافقته على ذلك ومشاركته له من المؤمنين والصالحين، ويبغضه إذا لم يفعل، صار له داع ثالث.

فإذا أمروه بذلك ووالوه على ذلك وعادوه وعاقبوه على تركه ، صار له داع رابع .

المؤمن مأمور بإصلاح نفسه ثم دعوة غيره :

ولهذا يؤمر المؤمنون أن يقابلوا السيئات بضدها من الحسنات، كما يقابل الطبيب المرض بضده . فيؤمر المؤمن بأن يصلح نفسه ، وذلك بشيئين : بفعل الحسنات، وترك السيئات، مع وجود ما ينفى الحسنات ويقتضى السيئات. وهذه أربعة أنواع .

ويؤمر ـ أيضا ـ بإصلاح غيره بهذه الأنواع الأربعة بحسب قدرته وإمكانه قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ. إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [سورة العصر].

وروى عن الشافعى [١] رضي الله عنه أنه قال: لو فكر الناس كلهم فى سورة «والعصر»، لكفتهم . وهو كما قال ، فإن الله ـ تعالى ـ أخبر أن جميع الناس خاسرون إلا من كان فى نفسه مؤمنا صالحا، ومع غيره موصيا بالحق موصيا بالصبر .

وإذا عظمت المحنة ، كان ذلك للمؤمن الصالح سببا لعلو الدرجة وعظيم الأجر ، كما سئل النبى ﷺ : أى الناس أشد بلاء ؟ قال : « الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان فى دينه

---

(١) الشافعى : هو محمد بن إدريس بن عثمان ، القرشى المطلبى ، نزيل مصر ، ولد بغزة ، وحفظ القرآن والحديث وتعلم اللغة ، روى عن مسلم بن خالد الزنجى ، ومالك بن أنس وإبراهيم بن سعد والدراوردى وغيرهم ، وروى عنه سليمان بن داود الهاشمى ، قال الشافعى : حفظت القرآن وأنا ابن سبع سنين ، وحفظت الموطأ وأنا ابن عشر .
انظر : تهذيب التهذيب (٩/ ٢٣) (٣٩) .

صلابة زيد فى بلائه، وإن كان فى دينه رقة خفف عنه. ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشى على وجه الأرض وليس عليه خطيئة »[١] .

وحينئذ، فيحتاج من الصبر ما لا يحتاج إليه غيره، وذلك هو سبب الإمامة فى الدين، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ[٢] أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

فلابد من الصبر على فعل الحسن المأمور به وترك السيئ المحظور، ويدخل فى ذلك الصبر على الأذى وعلى ما يقال، والصبر على ما يصيبه من المكاره، والصبر عن البطر عند النعم، وغير ذلك من أنواع الصبر.

ولا يمكن العبد أن يصبر إن لم يكن له ما يطمئن به ويتنعم به ويغتذى به، وهو اليقين، كما فى الحديث الذى رواه أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: « يا أيها الناس، سلوا الله اليقين والعافية، فإنه لم يعط أحد بعد اليقين خيرا من العافية، فسلوهما الله »[٣] .

وكذلك إذا أمر غيره بحسن أو أحب موافقته على ذلك ، أو نهى غيره عن شىء، فيحتاج أن يحسن إلى ذلك الغير إحسانا يحصل به مقصوده، من حصول المحبوب واندفاع المكروه، فإن النفوس لا تصبر على المر إلا بنوع من الحلو، لا يمكن غير ذلك .

ولهذا أمر الله ـ تعالى ـ بتأليف القلوب، حتى جعل للمؤلفة قلوبهم نصيبا فى الصدقات. وقال تعالى لنبيه ﷺ : ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف : ١٩٩].

---

(١) الترمذى فى الزهد (٢٣٩٨)، وقال : « حسن صحيح »، والدارمى فى الرقاق (٢٧٨٣)، وأحمد (١/ ١٧٢) عن سعد بن أبى وقاص، وصححه الألبانى .

(٢) فى بعض النسخ المطبوعة: «وجعلناهم» والصواب ما أثبتناه.

(٣) أحمد (١/ ٣) ، وقال الشيخ أحمد شاكر (٥) : « إسناده صحيح » ، والترمذى فى الدعوات (٣٥٥٨)، وقال : « غريب » ، وقال الألبانى : « حسن صحيح » .

وقال تعالى : ﴿ وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة﴾ [البلد: ١٧]، فلابد أن يصبر وأن يرحم، وهذا هو الشجاعة والكرم.

ولهذا يقرن الله بين الصلاة والزكاة تارة، وهى الإحسان إلى الخلق، وبينهما وبين الصبر تارة. ولابد من الثلاثة: الصلاة، والزكاة، والصبر. لا تقوم مصلحة المؤمنين إلا بذلك فى صلاح نفوسهم وإصلاح غيرهم، لا سيما كلما قويت الفتنة والمحنة، فالحاجة إلى ذلك تكون أشد، فالحاجة إلى السماحة والصبر عامة لجميع بنى آدم لا تقوم مصلحة دينهم ولا دنياهم إلا بهما .

ولهذا فإن جميعهم يتمادحون بالشجاعة والكرم،حتى إن ذلك عامة ما يمدح به الشعراء ممدوحيهم فى شعرهم . وكذلك يتذامون بالبخل والجبن. والقضايا التى يتفق عليها بنو آدم لا تكون إلا حقا، كاتفاقهم على مدح الصدق والعدل، وذم الكذب والظلم.

وقد قال النبى ﷺ لما سأله الأعراب؛ حتى اضطروه إلى سَمُرَة[(١)] فتعلقت بردائه، فالتفت إليهم وقال: «والذى نفسى بيده، لو أن عندى عدد هذه العضاه[(٢)] نعما لقسمته عليكم، ثم لا تجدونى بخيلا ولا جبانا ولا كذوبا »[(٣)]. لكن يتنوع ذلك بتنوع المقاصد والصفات؛ فإنما «الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»[(٤)].

ذم البخل والجبن :

ولهذا جاء الكتاب والسنة بذم البخل والجبن ومدح الشجاعة والسماحة فى سبيل الله دون ما ليس فى سبيله ، فقال النبى ﷺ : « شر ما فى المرء شح هالع ، وجبن خالع »[(٥)].

---

(١) أى : شجرة .

(٢) العضاه : جمع العضاهة ، وهى أعظم الشجر .

(٣) البخارى فى الجهاد (٢٨٢١) عن جبير بن مطعم.

(٤) البخارى فى بدء الوحى (١) ، ومسلم فى الإمارة (١٩٠٧/ ١٥٥) .

(٥) أبو داود فى الجهاد (٢٥١١) وأحمد (٢/ ٣٠٢ ، ٣٢٠) ، كلاهما عن أبى هريرة ، وصححه الألبانى . والهلع : أشد الجزع والضجر . والخالع : الشديد ، كأنه يخلع فؤاده من شدة خوفه .

وقال : « من سيدكم يا بنى سلمة ؟ » فقالوا : الجد بن قيس، على أنا نزنه بالبخل ، فقال : « وأى داء أدوأ من البخل ؟ »[١] وفى رواية : « إن السيد لا يكون بخيلاً ، بل سيدكم الأبيض الجعد البراء بن معرور »[٢] .

وكذلك فى الصحيح قول جابر بن عبد الله لأبى بكر الصديق رضي الله عنه : إما أن تعطينى وإما أن تبخل عنى . فقال : تقول : وإما أن تبخل عنى ! وأى داء أدوأ من البخل ؟[٣] فجعل البخل من أعظم الأمراض .

وفى صحيح مسلم عن سلمان بن ربيعة قال: قال عمر: قسم النبى ﷺ قسما فقلت: يا رسول الله، والله لغير هؤلاء أحق به منهم فقال: «إنهم خيرونى بين أن يسألونى بالفحش وبين أن يبخلونى، ولست بباخل »[٤] .

يقول: إنهم يسألونى مسألة لا تصلح، فإن أعطيتهم وإلا قالوا: هو بخيل، فقد خيرونى بين أمرين مكروهين لا يتركونى من أحدهما: المسألة الفاحشة والتبخيل. والتبخيل أشد، فأدفع الأشد بإعطائهم.

والبخل جنس تحته أنواع : كبائر، وغير كبائر، قال تعالى: ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾

[آل عمران: ١٨٠]

وقال: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا﴾ إلى قوله: ﴿إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا. الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل﴾ [النساء: ٣٦، ٣٧].

وقال تعالى: ﴿وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون﴾ [التوبة: ٥٤].

---

(١) البخارى فى الأدب المفرد (٢٩٦). وصححه الألبانى فى صحيح الأدب المفرد .

(٢) أبو الشيخ الأصبهانى فى الأمثال فى الحديث النبوى (٨٩) ، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (١٤٧٠).

(٣) البخارى فى المغازى (٤٣٨٣) عن جابر بن عبد الله.

(٤) مسلم فى الزكاة (١٠٥٦/ ١٢٧).

وقال: ﴿ فلمَّا آتاهُم مِن فضلِه بخلُوا به وتولَّوا وَهُم مُعرِضُونَ. فأعقبَهُم نفاقًا في قُلُوبِهِم إلىٰ يومِ يلقَونَه﴾ [التوبة: ٧٦، ٧٧].

وقال: ﴿ومَن يبخَلْ فإنَّما يبخَلُ عَن نَفسِه﴾ [محمد: ٣٨].

وقال: ﴿ فويلٌ لِلمُصلِّين. الَّذين هُم عن صلاتِهِم ساهُونَ. الَّذين هُم يراءُونَ. ويمنَعُونَ الماعُونَ﴾ [الماعون: ٤ ـ ٧].

وقال: ﴿والَّذينَ يكنِزُونَ الذَّهبَ والفِضَّةَ ولا ينفِقُونَها في سبيلِ اللهِ فبشِّرهُم بعذابٍ أليمٍ. يومَ يُحمىٰ عليها في نارِ جهنَّمَ فتُكوىٰ بها جباهُهُم وجُنُوبُهُم وظُهُورُهُم﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

وما فى القرآن من الأمر بالإيتاء والإعطاء وذم من ترك ذلك ، كله ذم للبخل.

وكذلك ذمه للجبن كثير، مثل قوله: ﴿ومَن يُولِّهِم يومَئذٍ دُبُرَهُ إلاَّ مُتحرِّفًا لِقتالٍ أوْ مُتحيِّزًا إلىٰ فئةٍ فقدْ باءَ بغضبٍ مِنَ اللهِ ومأْواهُ جهنَّمُ وبئسَ المصيرُ﴾ [الأنفال: ١٦].

وقوله عن المنافقين: ﴿ويحلِفُونَ باللهِ إنَّهُم لَمِنكُم وما هُم مِنكُم ولكنَّهُم قومٌ يفرَقُونَ. لوْ يجِدُونَ ملْجَئًا أوْ مغاراتٍ أوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوا إليهِ وَهُم يجمَحُونَ﴾ [التوبة: ٥٦، ٥٧].

وقوله: ﴿فإذا أُنزِلَتْ سُورةٌ مُحكمةٌ وذُكِرَ فيها القِتالُ رأيْتَ الَّذينَ في قُلُوبِهِم مَرَضٌ ينظُرُونَ إليْكَ نظرَ المَغْشيِّ عليْهِ مِنَ الموْتِ﴾ [محمد: ٢٠].

وقوله: ﴿ ألَمْ تَرَ إلى الَّذين قيلَ لَهُمْ كُفُّوا أيديكُمْ وأقيمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكاةَ فلمَّا كُتِبَ عليْهِمُ القِتالُ إذا فَريقٌ مِنهُمْ يخْشَوْنَ النَّاسَ كخَشْيَةِ اللهِ أوْ أشدَّ خَشْيَةً وقالُوا ربَّنا لِمَ كتَبْتَ عَلَيْنا القِتالَ لَولا أخَّرتَنا إلىٰ أجلٍ قريبٍ قُلْ متاعُ الدُّنيا قليلٌ والآخرةُ خيرٌ لِمَنِ اتَّقىٰ ولا تُظلَمُونَ فتيلاً﴾

[النساء: ٧٧]

وما فى القرآن من الحض على الجهاد والترغيب فيه وذم الناكلين عنه والتاركين له ، كله ذم للجبن.

أهمية الشجاعة والكرم فى حياة الأمة :

ولما كان صلاح بنى آدم لا يتم فى دينهم ودنياهم إلا بالشجاعة والكرم، بين ـ سبحانه ـ أن من تولى عن الجهاد بنفسه أبدل الله به من يقوم بذلك، فقال: ﴿يا أيُّها الَّذين آمنوا ما لكُمْ إذا قيلَ لكُمُ انفروا في سبيل اللَّه اثَّاقلتُمْ إلى الأرْض أرضيتُم بالْحياة الدُّنْيا من الآخرة فما متاعُ الْحياة الدُّنْيا في الآخرة إلاَّ قليلٌ . إلاَّ تنفروا يُعذِّبْكُمْ عذابًا أليمًا ويستبدلْ قومًا غيركُمْ ولا تضرُّوهُ شيْئًا واللَّهُ علىٰ كُلِّ شيْءٍ قديرٌ﴾ [التوبة: ٣٨، ٣٩].

وقال تعالى: ﴿ها أنتُم هؤلاء تُدْعوْنَ لتُنفقُوا في سبيل اللَّه فمنكُم مَن يبْخلُ ومن يبْخلْ فإنَّما يبْخلُ عن نَفْسه واللَّهُ الْغنيُّ وأنتُمُ الْفُقراءُ وإن تتولَّوْا يستبْدلْ قومًا غيْركُمْ ثُمَّ لا يكُونُوا أمْثالكُم﴾ [محمد: ٣٨].

وبالشجاعة والكرم فى سبيل الله فضَّل السابقين ، فقال : ﴿ لا يستوي منكُم مَنْ أنفق من قبْل الْفتْح وقاتل أُولئك أعْظمُ درجةً مِّن الَّذين أنفقُوا من بعْدُ وقاتلُوا وكُلاًّ وعد اللَّهُ الْحُسْنىٰ﴾ [الحديد: ١٠] .

وقد ذكر الجهاد بالنفس والمال فى سبيله، ومدحه فى غير آية من كتابه، وذلك هو الشجاعة والسماحة فى طاعته ـ سبحانه ـ فقال: ﴿ كم مِّن فئةٍ قليلةٍ غلبتْ فئةً كثيرةً بإذْن اللَّه واللَّهُ مع الصَّابرين﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وقال تعالى: ﴿يا أيُّها الَّذين آمنُوا إذا لقيتُمْ فئةً فاثْبتُوا واذْكُرُوا اللَّه كثيرًا لعلَّكُمْ تُفْلحُون . وأطيعُوا اللَّه ورسُولهُ ولا تنازعُوا فتفْشلُوا وتذْهب ريحُكُمْ واصْبرُوا إنَّ اللَّه مع الصَّابرين﴾

[الأنفال: ٤٥، ٤٦]

المراد بالشجاعة :

والشجاعة ليست هى قوة البدن، وقد يكون الرجل قوى البدن ضعيف القلب، وإنما هى قوة القلب وثباته. فإن القتال مداره على قوة البدن وصنعته

للقتال، وعلى قوة القلب وخبرته به. والمحمود منهما ما كان بعلم ومعرفة، دون التهور الذى لا يفكر صاحبه، ولا يميز بين المحمود والمذموم.

ولهذا كان القوى الشديد :الذى يَملك نفسه عند الغضب، حتى يفعل ما يصلح. فأما المغلوب حين غضبه فليس بشجاع ولا شديد.

الصبر عند الغضب وعند المصيبة :

وقد تقدم أن جماع ذلك هو الصبر، فإنه لابد منه. والصبر صبران: صبر عند الغضب، وصبر عند المصيبة. كما قال الحسن: ما تجرع عبد جرعة أعظم من جرعة حلم عند الغضب، وجرعة صبر عند المصيبة، وذلك لأن أصل ذلك هو الصبر على المؤلم. وهذا هو الشجاع الشديد الذى يصبر على المؤلم.

والمؤلم إن كان مما يمكن دفعه أثار الغضب، وإن كان مما لا يمكن دفعه أثار الحزن؛ ولهذا يحمر الوجه عند الغضب لثوران الدم عند استشعار القدرة، ويصفر عند الحزن لغور الدم عند استشعار العجز.

ولهذا جمع النبى ﷺ فى الحديث الصحيح الذى رواه مسلم عن ابن مسعود قال: قال النبى ﷺ: « ما تعدون الرَّقُوب فيكم ؟ » قالوا : الرقوب الذى لا يولد له. قال: «ليس ذلك بالرقوب، ولكن الرقوب الرجل الذى لم يقدم من ولده شيئا » .

ثم قال : « ما تعدون الصُّرَعَة فيكم ؟ » قلنا : الذى لا تصرعه الرجال. فقال: «ليس بذلك، ولكن الصُّرَعة الذى يملك نفسه عند الغضب » [1] ، فذكر ما يتضمن الصبر عند المصيبة والصبر عند الغضب.

قال الله ـ تعالى ـ فى المصيبة : ﴿وبشر الصابرين. الذين إذا أصابتهم مُصيبةٌ قالُوا إنا لله

---

(١) مسلم فى البر والصلة (٢٦٠٨/ ١٠٦).

وإنا إليه راجعون﴾ الآية [البقرة: ١٥٥، ١٥٦]. وقال ـ تعالى ـ فى الغضب: ﴿وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ [فصلت: ٣٥].

الصبر عند النعمة وعند المصيبة:

وهذا الجمع بين صبر المصيبة وصبر الغضب نظير الجمع بين صبر النعمة وصبر المصيبة، كما فى قوله تعالى: ﴿ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور. ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور. إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير﴾ [هود: ٩ ـ ١١].

وقال: ﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ [الحديد: ٢٣].

وبهذا وصف كعب بن زهير من وصفه من الصحابة المهاجرين حيث قال:

لا يفرحون إذا نالت سيوفهم قوما وليسوا مجازيعا إذا نيلوا

وكذلك قال حسان بن ثابت[1] فى صفة الأنصار:

لا فخر إن هم أصابوا من عدوهم وإن أصيبوا فلا خور ولا هلع

وقال بعض العرب فى صفة النبى ﷺ: يَغْلِب فلا يبطر، ويُغْلَب فلا يضجر.

نهى النبى ﷺ عن صوتين؛ عند نعمة وعند مصيبة:

ولما كان الشيطان يدعو الناس عند هذين النوعين إلى تعدى الحدود بقلوبهم

---

(١) هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن مالك بن النجار الأنصارى الخزرجى، شاعر النبى ﷺ روى عن النبى ﷺ أحاديث، روى عنه سعيد بن المسيب وأبو سلمة بن عبد الرحمن وعروة بن الزبير وآخرون. قال أبو عبيدة: فضل حسان بن ثابت على الشعراء بثلاث: كان شاعر الأنصار فى الجاهلية، وشاعر النبى ﷺ فى أيام النبوة، وشاعر اليمن كلها فى الإسلام، وفى الصحيحين عن البراء أن النبى ﷺ قال لحسان: «اهجهم أو هاجهم وجبريل معك» اختلف فى عمره فالجمهور على أنه عاش مائة وعشرين سنة، قال أبو عبيد: مات سنة ٥٤ هجرية.
انظر: الإصابة (٢/٦٢) (٦/١٧٠)، وتهذيب التهذيب (٢/٢١٦) (٤٥٠).

وأصواتهم وأيديهم، نهى النبى ﷺ عن ذلك، فقال لما قيل له، وقد بكى لما رأى إبراهيم فى النزع : أتبكى ؟ أو لم تنه عن البكاء ؟ فقال : « إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين : صوت عند نعمة : لهو ولعب ومزامير شيطان ، وصوت عند مصيبة : لطم خدود، وشَقّ جيوب، ودعاء بدعوى الجاهلية »(١)، فجمع بين الصوتين.

نهى النبى ﷺ عن الضَّجَر فى المصائب :

وأما نهيه عن ذلك فى المصائب فمثل قوله ﷺ: «ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية »(٢).

وقال: « أنا برىء من الحالقة والصالقة والشاقة »(٣).

وقال : «ما كان من العين والقلب (٤) فمن الله، وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان»(٥).

وقال «إن الله لا يؤاخذ على دمع العين ولا حزن القلب، ولكن يعذب بهذا أو يرحم»، وأشار إلى لسانه(٦).

وقال : « من يُنح عليه، فإنه يعذب بما نيح عليه »(٧) .

---

(١) الترمذى فى الجنائز (١٠٠٥) عن جابر بن عبد الله، قال الترمذى: «حديث حسن»، والبيهقى فى شعب الإيمان (١٠١٦٣) ، وحسنه الألبانى .

(٢) البخارى فى الجنائز (١٢٩٧) عن عبد الله بن مسعود.

(٣) البخارى فى الجنائز (١٢٩٦) عن أبى موسى الأشعرى .
والحالقة : هى التى تحلق شعر رأسها عند المصيبة .
والصالقة : هى التى ترفع صوتها عند المصيبة .
والشَّاقة : هى التى تشق ثوبها عند المصيبة .

(٤) أى : دمع العين ، وحزن القلب .

(٥) أحمد (١/ ٢٣٧) ، وقال الشيخ أحمد شاكر (٢١٢٧) : « إسناده صحيح » ، والبيهقى فى السنن الكبرى فى الجنائز (٤/ ٧٠) .

(٦) جزء من حديث أخرجه البخارى فى الجنائز (١٣٠٤) عن عبد الله بن عمر .

(٧) البخارى فى الجنائز (١٢٩١) ومسلم فى الجنائز (٢٨/٩٣٣) كلاهما عن المغيرة ، وإنما يعذب الميت بهذا إن كان أوصى الورثة بأن يفعلوا ذلك .

واشترط على النساء فى البيعة ألا يَنُحْنَ، وقال : « إن النائحة إذا لم تتب قبل موتها، فإنها تلبس يوم القيامة درعًا من جَرَب وسربالا من قطران » (١).

وقال فى الغلبة والمصائب والفرح: «إن الله كتب الإحسان على كل شىء؛ فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليُحدّ أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته »(٢).

وقال : « إن أعف الناس قِتلةً أهل الإيمان »(٣).

وقال : « لا تمثلوا ولا تغدروا، ولا تقتلوا وليدا »(٤).

إلى غير ذلك مما أمر به فى الجهاد من العدل وترك العدوان اتباعًا لقوله تعالى: ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ [المائدة: ٨]، ولقوله تعالى: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ [البقرة: ١٩٠]

نهى النبى ﷺ عن السَّرَف والخيلاء :

ونهى عن لباس الحرير وتختم الذهب، والشرب فى آنية الذهب والفضة، وإطالة الثياب، إلى غير ذلك من أنواع السرف والخيلاء فى النعم، وذم الذين يستحلون الحِرَ(٥) والحرير والخمر والمعازف ، وجعل فيهم الخسف والمسخ . وقد قال الله تعالى: ﴿ إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا﴾ [النساء: ٣٦].

وقال عن قارون: ﴿إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين﴾ [القصص: ٧٦].

---

(١) مسلم فى الجنائز (٢٩/٩٣٤) عن أبى مالك الأشعرى. وابن ماجه فى الجنائز (١٥٨١) عنه أيضا، وفى الزوائد: « إسناده صحيح ورواته ثقات ».

(٢) مسلم فى الصيد والذبائح (٥٧/٩٥٥) عن شداد بن أوس.

(٣) أبو داود فى الجهاد (٢٦٦٦) عن عبد الله بن مسعود ، وضعفه الألبانى .

(٤) مسلم فى الجهاد والسير (٣/١٧٣١) ، والترمذى فى الديات (١٤٠٨) .

(٥) الحِرَ : الفَرْج . والمقصود : يستحلون الزنا .

وهذه الأمور الثلاثة مع الصبر عن الاعتداء فى الشهوة هى جوامع هذا الباب، وذلك : أن الإنسان بين ما يحبه ويشتهيه، وبين ما يبغضه ويكرهه، فهو يطلب الأول بمحبته وشهوته، ويدفع الثانى ببغضه ونفرته.

وإذا حصل الأول أو اندفع الثانى، أوجب له فرحا وسروراً . وإن حصل الثانى أو اندفع الأول، حصل له حزن .

فهو محتاج عند المحبة والشهوة أن يصبر عن عدوانهما ، وعند الغضب والنفرة أن يصبر على عدوانهما ، وعند الفرح أن يصبر عن عدوانه، وعند المصيبة أن يصبر عن الجزع منها .

فالنبى ﷺ ذكر الصوتين الأحمقين الفاجرين : الصوت الذى يوجب الاعتداء فى الفرح حتى يصير الإنسان فرحا فخورا ، والصوت الذى يوجب الجزع.

الأصوات المباحة :

وأما الصوت الذى يثير الغضب للّه، كالأصوات التى تقال فى الجهاد من الأشعار المنشدة، فتلك لم تكن بآلات، وكذلك أصوات الشهوة فى الفرح، فرخص منها فيما وردت به السنة من الضرب بالدف فى الأعراس والأفراح للنساء والصبيان.

وعامة الأشعار التى تنشد بالأصوات لتحريك النفوس هى من هذه الأقسام الأربعة، وهى التشبيب ، وأشعار الغضب والحمية وهى الحماسة والهجاء، وأشعار المصائب كالمراثى، وأشعار النعم والفرح، وهى المدائح.

والشعراء جرت عادتهم أن يمشوا مع الطبع، كما قال اللّه تعالى: ﴿ألم تر أنهم في كل واد يهيمون. وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾ [الشعراء: ٢٢٥، ٢٢٦]؛ ولهذا أخبر أنهم يتبعهم الغاوون، والغاوى: هو الذى يتبع هواه بغير علم، وهذا هو الغى،

وهو خلاف الرشد. كما أن الضال الذى لا يعلم مصلحته هو خلاف المهتدى، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿والنجم إذا هوى. ما ضل صاحبكم وما غوى﴾ [النجم: ١، ٢].

ولهذا قال النبى ﷺ: « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى»(١).

فلهذا تجدهم يمدحون جنس الشجاعة وجنس السماحة؛ إذ كان عدم هذين مذموماً على الإطلاق، وأما وجودهما فبه تحصل مقاصد النفوس على الإطلاق، لكن العاقبة فى ذلك للمتقين.

وأما غير المتقين فلهم عاجلة لا عاقبة، والعاقبة وإن كانت فى الآخرة فتكون فى الدنيا أيضا، كما قال تعالى لما ذكر قصة نوح ونجاته بالسفينة: ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم﴾ إلى قوله: ﴿فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾ [هود: ٤٨، ٤٩].

وقال: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾ [البقرة: ١٩٤].

والفرقان: أن يحمد من ذلك ما حمده الله ورسوله، فإن الله ـ تعالى ـ هو الذى حَمْده زَيْن، وذمه شَيْن، دون غيره من الشعراء والخطباء وغيرهم؛ ولهذا لما قال القائل من بنى تميم للنبى ﷺ: إن حمدى زين وذمى شين، قال له: «ذاك الله»(٢).

دليل الشجاعة المحمودة:

والله ـ سبحانه ـ حمد الشجاعة والسماحة فى سبيله، كما فى الصحيح عن

(١) أبو داود فى السنة (٤٦٠٧)، والترمذى فى العلم (٢٦٧٦) وقال: « حديث حسن صحيح »، وصححه الألبانى.

(٢) أحمد (٣/ ٤٨٨، ٦/ ٣٩٤)، والترمذى فى التفسير (٣٢٦٧) وقال: « هذا حديث حسن غريب »، وصححه الألبانى.

أبى موسى قال : قيل: يارسول اللّه ، الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حَمِيَّة، ويقاتل رياء، فأى ذلك فى سبيل اللّه ؟

فقال: «من قاتل لتكون كلمة اللّه هى العليا، فهو فى سبيل اللّه » (١) .

وقد قال سبحانه: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾ [الأنفال: ٣٩]، وذلك أن هذا هو المقصود الذى خُلِق الخلق له، كما قال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات:٥٦]، فكل ما كان لأجل الغاية التى خلق لها الخلق، كان محمودا عند اللّه، وهو الذى يبقى لصاحبه، وهذه الأعمال الصالحات.

أصناف الناس وأحوالهم حسب الشجاعة :

ولهذا كان الناس أربعة أصناف :

ـ من يعمل للّه بشجاعة وسماحة، فهؤلاء هم المؤمنون المستحقون للجنة.

ـ ومن يعمل لغير اللّه بشجاعة وسماحة، فهذا ينتفع بذلك فى الدنيا وليس له فى الآخرة من خلاق.

ـ ومن يعمل للّه لكن لا بشجاعة ولا سماحة، فهذا فيه من النفاق ونقص الإيمان بقدر ذلك.

ـ ومن لا يعمل للّه وليس فيه شجاعة ولا سماحة ، فهذا ليس له دنيا ولا آخرة.

علاقة الشجاعة بالأمر والنهى :

فهذه الأخلاق والأفعال يحتاج إليها المؤمن عموما، وخصوصا فى أوقات المحن والفتن الشديدة، فإنهم يحتاجون إلى :

ـ صلاح نفوسهم ودفع الذنوب عن نفوسهم عند المقتضى للفتنة عندهم.

---

(١) البخارى فى التوحيد (٧٤٥٨) ، ومسلم فى الإمارة (١٩٠٤/ ١٥٠) .

ـ ويحتاجون ـ أيضاً ـ إلى أمر غيرهم ونهيه بحسب قدرتهم .

وكل من هذين الأمرين فيه من الصعوبة ما فيه، وإن كان يسيرا على من يسره الله عليه ؛ وهذا لأن الله أمر المؤمنين بالإيمان والعمل الصالح، وأمرهم بدعوة الناس وجهادهم على الإيمان والعمل الصالح، كما قال الله تعالى: ﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

وكما قال: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ [غافر: ٥١]

وكما قال: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز﴾ [المجادلة: ٢١].

وكما قال: ﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾ [الصافات: ١٧٣].

خطورة ترك الأمر أو النهى خوف الفتنة :

ولما كان فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله من الابتلاء والمحن ما يتعرض به المرء للفتنة ، صار فى الناس من يتعلل لترك ما وجب عليه من ذلك ؛ بأنه يطلب السلامة من الفتنة ، كما قال عن المنافقين: ﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا﴾ الآية [التوبة: ٤٩].

نموذج الجَدّ بن قيس فى الوقوع فى الفتنة :

وقد ذكر فى التفسير أنها نزلت فى الجد بن قيس لما أمره النبى ﷺ بالتجهز لغزو الروم ـ وأظنه قال : « هل لك فى نساء بنى الأصفر ؟ » ـ فقال: يا رسول الله ، إنى رجل لا أصبر عن النساء ، وإنى أخاف الفتنة بنساء بنى الأصفر، فائذن لى ولاتفتنى[1] .

(١) الطبرانى فى الكبير (١٢/ ١٢٢) (١٢٦٥٤) ، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٧/ ٣٣٠) : « رواه الطبرانى فى الكبير وفيه يحيى الحمانى وهو ضعيف»، وضعفه الألبانى فى تعليقه على فقه السيرة للغزالى ص ٤٠٦ .

وهذا الجد هو الذى تخلف عن بيعة الرضوان تحت الشجرة، واستتر بجمل أحمر؛ وجاء فيه الحديث : « إن كلهم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر»[1] فأنزل اللّه ـ تعالى ـ فيه : ﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا﴾.

يقول : إنه طلب القعود ليسلم من فتنة النساء، فلا يفتتن بهن، فيحتاج إلى الاحتراز من المحظور ومجاهدة نفسه عنه فيتعذب بذلك أو يواقعه فيأثم، فإن من رأى الصور الجميلة وأحبها .

فإن لم يتمكن منها إما لتحريم الشارع وإما للعجز عنها يعذب قلبه، وإن قدر عليها وفعل المحظور هلك. وفى الحلال من ذلك من معالجة النساء ما فيه بلاء.

فهذا وجه قوله: ﴿ولا تفتني﴾، قال اللّه تعالى: ﴿ألا في الفتنة سقطوا﴾، يقول: نفس إعراضه عن الجهاد الواجب، ونكوله عنه وضعف إيمانه ومرض قلبه ـ الذى زين له ترك الجهاد فتنة عظيمة ـ قد سقط فيها !

فكيف يطلب التخلص من فتنة صغيرة لم تصبه بوقوعه فى فتنة عظيمة قد أصابته ؟ واللّه يقول: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله للّه﴾ [الأنفال: ٣٩].

فمن ترك القتال الذى أمر اللّه به لئلا تكون فتنة، فهو فى الفتنة ساقط بما وقع فيه من ريب قلبه ومرض فؤاده، وتركه ما أمر اللّه به من الجهاد.

أصناف الناس فى الأمر والنهى عند الفتنة :

فتدبر هذا، فإن هذا مقام خطر، فإن الناس هنا ثلاثة أقسام:

ـ قسم : يأمرون وينهون ويقاتلون طلباً لإزالة الفتنة التى زعموا، ويكون فعلهم ذلك أعظم فتنة، كالمقتتلين فى الفتنة الواقعة بين الأمة.

---

(١) مسلم فى صفات المنافقين وأحكامهم (٢٧٨٠/١٢) .

ـ **وأقوام** : ينكلون عن الأمر والنهى والقتال الذى يكون به الدين كله لله وتكون كلمة الله هى العليا؛ لئلا يفتنوا، وهم قد سقطوا فى الفتنة، وهذه الفتنة المذكورة فى «سورة براءة» دخل فيها الافتتان بالصور الجميلة؛ فإنها سبب نزول الآية.

وهذه حال كثير من المتدينين، يتركون ما يجب عليهم من أمر ونهى وجهاد يكون به الدين كله لله وتكون كلمة الله هى العليا؛ لئلا يفتنوا بجنس الشهوات، وهم قد وقعوا فى الفتنة التى هى أعظم مما زعموا أنهم فروا منه، وإنما الواجب عليهم القيام بالواجب وترك المحظور، وهما متلازمان .

وإنما تركوا ذلك لكون نفوسهم لا تطاوعهم إلا على فعلهما جميعا أو تركهما جميعا، مثل كثير ممن يحب الرئاسة أو المال وشهوات الغى، فإنه إذا فعل ما وجب عليه من أمر ونهى وجهاد وإمارة ونحو ذلك، فلابد أن يفعل شيئا من المحظورات.

ـ **فالواجب عليه** [1] : أن ينظر أغلب الأمرين.

فإن كان المأمور أعظم أجرا من ترك ذلك المحظور، لم يترك ذلك لما يخاف أن يقترن به ما هو دونه فى المفسدة .

وإن كان ترك المحظور أعظم أجرا، لم يفوت ذلك برجاء ثواب بفعل واجب يكون دون ذلك، فذلك يكون بما يجتمع له من الأمرين من الحسنات والسيئات، فهذا هذا. وتفصيل ذلك يطول.

وقوع الأمر والنهى من كل فرد :

وكل بشر على وجه الأرض فلابد له من أمر ونهى، ولابد أن يأمر وينهى، حتى لو أنه وحده، لكان يأمر نفسه وينهاها؛ إما بمعروف وإما بمنكر ، كما قال تعالى: ﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾ [يوسف : ٥٣].

---

(١) أى الآمر أو الناهى . وهذا هو القسم الثالث .

فإن الأمر : هو طلب الفعل وإرادته، والنهى : طلب الترك وإرادته، ولابد لكل حيٍّ من إرادة وطلب فى نفسه يقتضى بهما فعل نفسه، ويقتضى بهما فعل غيره إذا أمكن ذلك، فإن الإنسان حى يتحرك بإرادته.

وبنو آدم لايعيشون إلا باجتماع بعضهم مع بعض، وإذا اجتمع اثنان فصاعدا، فلابد أن يكون بينهما ائتمار بأمر وتناه عن أمر؛ ولهذا كان أقل الجماعة فى الصلاة اثنين، كما قيل: الاثنان فما فوقهما جماعة، لكن لما كان ذلك اشتراكا فى مجرد الصلاة حصل باثنين أحدهما إمام والآخر مأموم، كما قال النبى ﷺ لمالك بن الحويرث [١] وصاحبه : « إذا حضرت الصلاة فأذنا وأقيما وليؤمكما أكبركما » [٢] ، وكانا متقاربين فى القراءة.

وأما الأمور العادية، ففى السنن أنه ﷺ قال: «لا يحل لثلاثة يكونون فى سفر إلا أمَّروا عليهم أحدهم»[٣].

ترك الأمر والنهى بحق يؤدى إلى ضده :

وإذا كان الأمر والنهى من لوازم وجود بنى آدم، فمن لم يأمر بالمعروف الذى أمر اللّه به ورسوله، وينه عن المنكر الذى نهى اللّه عنه ورسوله، ويؤمر بالمعروف الذى أمر اللّه به ورسوله ، ويُنه عن المنكر الذى نهى اللّه عنه ورسوله وإلا فلابد أن يأمر وينَهى، ويؤمر ويُنهى: إما بما يضاد ذلك، وإما بما يشترك فيه الحق الذى أنزل اللّه بالباطل الذى لم ينزله اللّه، وإذا اتخذ ذلك ديناً، كان ديناً مبتدعا.

---

(١) هو مالك بن الحويرث بن أشيم بن عبد ياليل بن سعد بن ليث الليثى . سكن البصرة وله أحاديث ، روى عنه نصر بن عاصم وابنه الحسن بن مالك . مات بالبصرة سنة أربع وسبعين .
انظر : الإصابة (٥/٧١٩) (٧٦٢٣) .

(٢) البخارى فى الجهاد والسير (٢٨٤٨) ، ومسلم فى المساجد (٦٧٤/ ٢٩٣) .

(٣) أحمد (٢/ ١٧٧) ، وقال الشيخ أحمد شاكر (٦٦٤٧) : « إسناده صحيح » ، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٤/ ٨٤، ٨٥) . « وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن ، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح » .

وهذا كما أن كل بشر فإنه حيٌّ متحرك بإرادته، همام حارث، فمن لم تكن نيته صالحة وعمله عملاً صالحاً لوجه اللّه، وإلا كان عملا فاسداً أو لغير وجه اللّه، وهو الباطل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ [الليل: ٤].

وهذه الأعمال كلها باطلة، من جنس أعمال الكفار ﴿الَّذين كفَرُوا وصدُّوا عن سبيل اللّه أضلَّ أعْمالَهُمْ﴾ [محمد: ١].

وقال تعالى: ﴿والَّذين كفَرُوا أعْمالُهُمْ كسَرابٍ بقيعةٍ يحْسبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حتَّى إذا جاءهُ لمْ يجدْهُ شيْئًا ووجد اللّهَ عندهُ فوفَّاهُ حسابهُ واللّهُ سريعُ الْحساب﴾ [النور: ٣٩].

وقال: ﴿وقدمْنا إلى ما عمِلُوا منْ عمَلٍ فجعلْناهُ هباءً منْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وجوب طاعة الآمر أو الناهى بحقّ:

وقد أمر اللّه فى كتابه بطاعته وطاعة رسوله وطاعة أولى الأمر من المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿يا أيُّها الَّذين آمنُوا أطيعُوا اللّه وأطيعُوا الرَّسُول وأُولي الأمْر منكُمْ فإن تنازعْتُمْ في شيْءٍ فرُدُّوهُ إلى اللّه والرَّسُول إن كُنْتُمْ تُؤْمنُونَ باللّه والْيوْم الآخر ذلكَ خيْرٌ وأحْسنُ تأْويلاً﴾ [النساء: ٥٩].

أولو الأمر الواجب طاعتهم:

و« أولو الأمر »: أصحاب الأمر وذووه، وهم الذين يأمرون الناس، وذلك يشترك فيه: أهل اليد والقدرة وأهل العلم والكلام.

فلهذا كان أولو الأمر صنفين:

- العلماء.
- والأمراء.

فإذا صلحوا، صلح الناس، وإذا فسدوا، فسد الناس، كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه للأحمسية لما سألته: ما بقاؤنا على هذا الأمر؟ قال: ما استقامت لكم أئمتكم.

ويدخل فيهم : الملوك والمشايخ وأهل الديوان، وكل من كان متبوعا فإنه من أولى الأمر .

وعلى كل واحد من هؤلاء أن يأمر بما أمر الله به، وينهى عما نهى عنه، وعلى كل واحد ممن عليه طاعته أن يطيعه فى طاعة الله، ولا يطيعه فى معصية الله، كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين تولى أمر المسلمين وخطبهم، فقال فى خطبته :

أيها الناس، القوى فيكم الضعيف عندى حتى آخذ منه الحق، والضعيف فيكم القوى عندى حتى آخذ له الحق، أطيعونى ما أطعت الله، فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم[1] .

(١) عبد الرزاق فى المصنف (٢٠٧٠٢)، وأحمد (١/ ١٣ ، ١٤) بنحوه ، وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده حسن » .